﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَايْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ [الرّعد: 31]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكْـرُ تعظيم الـوحـي بعد ذِكْرِ عِلَّة إرسال الرَّسول ﷺ

لمّا ذَكَر الله تعالى في الآية السّابقة عِلَّة إرساله ﷺ بقوله تعالى: ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، ذَكَرَ في هذه الآية تَعظيم هذا الوحْي وأثَرَ هذه العظَمة القرآنيَّة في تَسْيير الجبال وتقطيع الأرض وتَكليم الموْتى، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾.

ومن المُناسبة أنَّه سُبحانه لمّا بَيّن لهُم في الآيات السّابقة عظيمَ ما أودعَ في السَّماواتِ والأرضِ وما بينهما من الآياتِ، وبَسَطَ ذلك وأوضَحَه، أردَفَ ذلك بآيةٍ أخرى جامعةٍ للآياتِ؛ فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ فكان ما جاء قَبْلًا تمهيدًا للآية[1].

ومن المُناسَبة أيضًا في سياق السّورة ذاتها: أنَّ هذه الآيةَ ترتبط بما قبلَها ارتباطَ التَّفصيلِ والإجمالِ والتَّدليل على كذبهم وادّعائهم، فقد طَلَب الكفّارُ آيةً خارقةً تنزل على الرَّسول الكريم ﷺ تقودهم إلى الإيمان، لأنَّهم قلِقونَ، غيرُ مطمئنّين، وهذا واضحٌ من قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ [الرّعد: 27]، فتأتي الآيةُ مكذِّبةً لزَعمهم، مُفَصِّلةً، قائلةً: لو كان من شأن أيِّ قرآنٍ أن

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/267، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/139.

تسيَّرَ به الجبالُ أو تُقطَّع به الأرضُ، أو يُكلَّم به الموتى، لكان في هذا القرآنِ، لكنَّكم أهلُ لَجاجةٍ وكُفرٍ لن تؤمنوا بما جاء به الرَّسولُ ﷺ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سُيِّرَتْ﴾: السّين والياء والرّاء أصْلٌ يَدُلُّ على مُضي وجَرَيانٍ، والمعنى المِحوريُّ امتدادٌ طولي مُطَّردٌ مع دقَّةٍ ما، والانتقال من مكان إلى مكان وامتداد وانتشار من هذا إلى ذاك، ومن السَّيْر: الذَّهاب: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 11]، والتَّسْيير ضرْبان: أحدُهما بالأمْر والاختيار والإرادة من السّائر، نحْو: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾ [يونس: 22]، والثّاني بالقَهْر والتَّسخير، كتَسخير الجبال[1]، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾ [التّكوير: 3]، ومعنى التّسْيير في الآية النَّقْلُ عن أماكنِها[2].

2) ﴿ٱلْجِبَالُ﴾: الجَبَل وتِدٌ مِنْ أوْتاد الأرض إذا عَظُم وطالَ مِنَ الأعْلام والأطْواد، جَمْعُهُ: أجْبال وجِبال وأجْبُلٌ، وقال ﷻ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ [النَّبأ: 6-7]، واستُعيرَ منه واشتُقَّ بِحَسَبه، فقيل: فلانٌ جبَلٌ لا يَتَزحْزح؛ تَصوُّرًا لمَعنى الثَّبات فيه، والمَقصودُ بالجِبال هُنا جِبالُ مكَّة، والشّام[3].

3) ﴿قُطِّعَتْ﴾: القَطْعُ: فَصْل الشَّيء مُدْرَكًا بالبَصَر كالأجْسام، أو مُدْرَكًا بالبَصيرَةِ كالأشياء المَعقولة، يُقال: قَطَعْتُ الشَّيْءَ قَطْعًا، وقَطَعْتُ النَّهر قُطوعًا: عَبَرْتُه، وقَطَعَ ماءُ الرَّكيَّة قُطوعًا وقِطاعًا؛ أيْ: انْقَطَعَ وذهَبَ، والقافُ والطّاءُ والعيْنُ أصلٌ صَحيحٌ واحدٌ، يدُلُّ عَلى صَرْم وإبانةِ شَيءٍ مِنْ شيْءٍ، يُقالُ: قَطَعْتُ الشَّيْءَ، أقْطعُه قَطعًا، والمعنى هُنا شُقِّقَتْ فجُعِلَتْ أنهارًا وعيونًا، ويُراد بـ ﴿قُطِّعَتْ﴾ أيضًا تَبْعيد القَريب أو تَقْريب البَعيد[4].

4) ﴿يَأْيْـَٔسِ﴾: اليَأْسُ: القُنوطُ، وقَطْعُ الأمَلِ، وقيلَ: اليَأْس نَقيضُ الرَّجاءِ، واليأْس: انتِفاءُ الطَّمَعِ، وقد يَئِسَ من الشّيْءِ يَيْأس، وفيه لُغة أخرى: يَئِسَ يَيْئَسُ، بالكَسْرِ فيهما، عَلى يَفْعَلُ ويَفْعِلُ، واليَأْس: العِلْمُ، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَأْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ أيْ: أفَلَم يَعْلموا[5].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (سار).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سير).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 13/531.

(4) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قطع).

(5) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (يئس).

5) ﴿يَزَالُ﴾: زال، ويُقالُ: زالَ الشَّيْءُ: إذا تُرِك عَن مَكانِه ولَم يَبْرَحْه؛ ويُقالُ: ما زالَ يَفعل كَذا وكَذا، ولا يَزال يَفعَل كَذا، كَقوْلِك: ما بَرِح، وما فَتِئَ، وما انْفَكَّ، ومُضارِعُه: لا يزال، ولا يُتكلَّم بِهِ إلّا بحرْفِ نَفيٍ، قالَ ابْن كيْسان: "لَيس يُراد بـ (ما زالَ) و(لا يَزالُ) الْفِعْل من (زالَ يَزولُ) إذا انْصَرف من حالٍ إلى حالٍ، وزالَ من مَكانِه، ولَكِن يُراد بهما مُلازَمَةُ الشَّيْءِ، والحالُ الدّائمَة"[1].

وقولهم: ما زالَ، ولا يَزالُ خُصَّ بالعبارة وأُجْرِيَ مجرى (كان) في رَفْع الاسم ونَصْبِ الخَبَر، وأصْلُه من الياء (زَيَّلت) ومعناه: معنى ما بَرِحت[2].

6) ﴿تُصِيبُهُم﴾: أصابَ يَصوبُ صَوْبًا؛ إذا نَزَلَ، وأصابَ: نالَ، والإصابة: الْموافَقَة، وأصْل ذلِك من قَوْلهم: صابَ السَّهْم، وأصاب جاء في الخَير والشَّرِّ، والإصابة في الخيْر اعتبارًا بالصَّوْب؛ أيْ: بالمَطَرِ، وفي الشَّرِّ اعتبارًا بإصابة السَّهْم[3].

7) ﴿صَنَعُواْ﴾: الصُّنْعُ: إجادةُ الفعل وحِذقُه، فكلّ صُنْعٍ فِعْلٌ، وليس كلُّ فِعل صُنْعًا، ولا يُنْسَب إلى الحيوانات والجمادات كما يُنْسَب إليها الفِعْل، قال تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النّمل: 88]، وقال: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ [هود: 38]، وقال: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ [هود: 37][4].

8) ﴿قَارِعَةٌ﴾: (قرع)، مُعْظَم البابِ: ضَرْبُ الشَّيءِ، يُقال: قَرَعْتُ الشَّيءَ أَقْرَعُهُ: ضَرَبْتهُ، والقارِعة: الشَّديدة من شدائدِ الدَّهْر، وسُمِّيَت بذلك؛ لأنَّها تَقْرَع النَّاس؛ أيْ: تَضْربهم بشِدَّتها، والقارِعة: القيامة، لأنَّها تَضْرِب وتُصيب النَّاس بإقراعها[5].

9) ﴿تَحُلُّ﴾: "حَلَّ بالمكان وحَلَّه (يَحلُّه) بِضَمِّ الحاء وكَسْرِها حُلولًا: نَزَلَ"، فهو من حَلّ المُسافِر عُقَدَ أحْمالِه ليَنزِل بالمكان، ثُمّ جُرِّد استعمالُه للنّزول وهو نَقيض الارتِحالِ، والحَلُّ: الحُلولُ والنُّزول[6].

10) ﴿دَارِهِمْ﴾: الدّارُ: المَحَلّ الَّذي يَجمَع البناءَ والسّاحة، والمنزلُ المَسكون الَّذي يُحيط

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (زيل).
(2) الرّاغب، المفردات في غريب القرآن: (زال).
(3) الرّاغب، المفردات في غريب القرآن: (صوب).
(4) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (صنع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرع).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والرّاغب المفردات: (حلل).

بساكِنيهِ، وكلُّ مَوْضعٍ حَلَّ به قوم فهو دارُهم، وكلّ موضعِ حُلولٍ له حَرَم يُحيط به وإن لَم يَكُن جِدارًا، قالَ تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: 81]، وقال: ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ [الإسرَاء: 5]، وكلُّ ما جاء في القرآن بلَفْظ (دار) أو (ديار) مُضافًا فهو من دورِ هذه الدُّنيا(1).

11) ﴿لَا يُخْلِفُ﴾: الإخلافُ أن لا يَفيَ بالعَهْد، وأن يَعِدَ الرَّجلُ الرَّجلَ العِدّة فلا يُنْجِزها، ورجل مُخلِفٌ؛ أي: كثير الإخلاف لوَعْدِه، والإخلاف: أن يَطلبَ الرَّجل الحاجَة أو الماءَ فلا يَجِد ما طَلَب، ويُقال: للَّذي لا يَكاد يَفي إذا وَعَد: إنَّه لمِخْلافٌ(2).

12) ﴿ٱلْمِيعَادَ﴾: أصْله من الوَعْد، والميعاد لا يكون إلّا وَقتًا أو مَوْضِعًا، والوَعْد مصْدَر حقيقيٌّ، والعِدَةُ: اسمٌ يوضَعُ مَوْضع المَصْدر، وكذلك المَوْعِدة، قال الله ﷻ: ﴿إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التّوبة: 114](3).

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

بيان عظمة القرآن وبعض مَظاهر إعجازِه

بيَّن الله تعالى في هذه الآية عظَمة القرآن بَعدما بيَّن ما صرَّفه للنّاس من حُجَج وبراهين، بأنَّه لو كان ثَمَّ كتابٌ من الكُتب السَّماويَّة تُزال به الجبالُ عن أماكنها، أو تُشقّق به الأرض فتَسْتحيل أنهارًا وعيونًا، أو يُقرأ على الموتى فيَصيروا من الأحياء؛ لكان في هذا القرآن من الخصائص والمُؤَثِّرات، ما تَتمُّ معه هذه الخوارقُ والمعجزاتُ، ثُمّ أبانَ القرآن أنَّ الله تعالى قادِرٌ على الإتيان بما اقتَرَحوه، لكنَّه لَم يُرِدْ ذلك، ثُمَّ أتْبَع ذلك بالتَّيْئيس، فكان على المؤمنين أن يَعلَموا أنَّ هؤلاء لن يؤمنوا لاستكبارهم وعُتوِّهم، ومشيئة الله هي النّافِذة في إيمان مَن يُؤمن وكُفر مَن يَكفر، ثُمَّ كان التَّهديد بالابتلاءات والقَوارِع الَّتي تُصيبهم، أو تَنزِلُ قريبة منهم،

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دور).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (خلف).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (وعد).

وبعد الابتلاءات والقوارِع، كانت التَّسليَة لرَسول الله ﷺ بأنَّ النَّصر آتٍ لا مَحالة بفَتْح مكَّة وعذابِهم وغير ذلك من أنواع النَّصر، فهذا موعود الله تعالى ولا مِريَة فيه، والله ﷻ لا يَترُك إنجازَ ما وعَدَ عندما يَحين وقتُه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾:

بيان أنَّ رسالته ﷺ ليست بِدَعًا من رِسالات الرُّسل عليهم السلام

جاءت الواو هُنا لرَبْط أوْصال قِصَّة تحدّي الكفّار للرَّسول ﷺ؛ لأنَّ الواو لمُطلَق الجمْع[2] في القصَّة، والعطْف بالواو جاء على قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾؛ لأنّ المقصود من الجُملة المعطوف عليها أنَّ رسالته لَم تَكُن إلّا مثل رسالة غيره من الرُّسل عليهم السَّلام.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿وَلَوْ﴾ دون غيرها:

بيان أنَّ القرآن كتاب هداية ورَشاد

الحرف (لو) في عُرف النُّحاة حرْف يُفيد امْتِناع الجواب لامتِناع الشَّرْط، وقد آثَرَ القرآن تَوْظيف ﴿وَلَوْ﴾ لبيان أنَّه كتاب هداية ورشاد لا كتاب مُعْجزات حسّية؛ أيّ إنَّ أيّ كتابٍ لو اشتمَل على المُعجزات الحِسّية من تَسْيير الجبال وغيرها، لَكان القرآنُ الكتابَ الأجدرَ بهذه المُعجزات، لكن هذا لا يكون.

علاقة ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ بـ ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ﴾:

التَّفسير بَعد الإبهام ببيان مَطالِبهم المتعدّدة

تعلَّقت جملة ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ بقوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الرّعد: 27]، عن طريق التَّتْميم؛ فتكون جملة ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ تَتِمّة للجواب عن قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الرّعد: 27]،

(1) مكّيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 5/3739، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/145 وما بعدها.

(2) المراديّ، توضيح المقاصد: 1/132.

وتَظهر العَلاقة أيضًا من التَّعريف بعد الإبهام، ذلك أنَّ آية: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الرّعد: 27] عامّة غيرُ مُحَدَّدة، فجاءت آية ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ لتُحَدِّدَ مَطالِبَهم المُتعدِّدة وتُعرِّفها فيكون أوْقَعَ في النَّفس، لِما اشتمل عليه من التَّفسير بعد الإبهام، والنَّفس لِمِثْله أشْوَق، ولِما فيه من الإجمال والتّفصيل، فيكون أبْلَغ دلالة وأوْكَد[1].

نُكتة التَّعبير بالقُرآن: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾:

بيان عُلوِّ شأن القرآن ورِفعتِه وشُموله واتّساعِه

يكمن سِرُّ تسميَة هذا الكتاب قُرآنًا من بيْن كُتُبِ الله لكونه جامعًا لثَمرة كُتُبِه، بل لِجمْعه ثمرة جميع العُلوم، لذا كان التَّعبير عن الكُتُبِ السّابقة بالقرآن[2]، وبعبارة أخرى فهو يَضمُّ كمالاتِ غيره من الكُتُبِ[3]، وفي هذا بيانٌ لعُلوِّ شأن القرآن ورِفْعته وشُموله واتِّساعه بحيث ضَمَّ ما حَوَتْه الكتبُ السّابقة عليه من ثمرات العُلوم والمعارف.

دلالة التَّنكير وتَنوينه: ﴿قُرْءَانًا﴾:

بيان عظَمة القرآن وكونه غاية في التَّذكير، ونهاية في الإنذار والتَّخويف

جاء لفظ ﴿قُرْءَانًا﴾ مُنكَّرًا للتَّعظيم، فتعظيم هذا المُوحَى وأنَّه لو كان ثَمَّ قُرآنًا تُسيَّر به الجبال عن مقارِّها، أو تُقطَّع به الأرض حتّى تَتزايَل قِطَعًا قطعًا، أو تُكلَّم به الموتى فتَسمَع وتُجيب، لكان هذا القرآن؛ لكونه غايةً في التَّذكير، ونهايةً في الإنذار والتَّخويف[4].

سِرُّ حذْف جواب ﴿وَلَوْ﴾:

إفادة العموم والشُّمول

الحذْف من شجاعة العربيَّة[5]، وحذْف جواب (لو) في القرآن شائع مُستفيض[6]، وحذْف الجواب أبلَغُ من ذِكْرِه، لأنَّ النَّفس تذهب كلَّ مَذْهب في القصْد من الجواب، فهو شيء لا يحيط به الوصْف،

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/74.
(2) الرّاغب، المفردات: (قرأ).
(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 6/318.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/529، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 2/155.
(5) ابن جنّي، الخصائص: 2/362.
(6) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 2/353.

فلا يتصوّر مطلوبًا أو مكروهًا إلّا ويجوز أن يكون الأمرُ أعظمَ منه، وهو مَبنيٌّ على عِلْمِ المُخاطَب، وتخفيفٌ من ذِكر ما لا فائدة منه، ولو عُيِّن شيءٌ اقتُصر عليه لَخَفَّ أمرُه[1]، بمعنى أنَّ التَّعبيرَ يكون قاصرًا عن إدراك الحقيقة، وقد قَدَّره العُلماء بـ: (لكان هذا القرآن)، أو (ما آمنوا)، وحذْف جواب ﴿وَلَوْ﴾ في الآية الكريمة دالٌّ على أنَّ القرآن الكريم في غاية ما يكون من الصِّحَّة، فاكتفى بمعرفة السّامعين من مُرادِه[2].

سِرُّ تخصيص الأمور الثّلاثة في الآية:

تعنُّت كفّار مكّة بطلَب هذه الخوارق

يظهر سِرُّ التَّخصيص في قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أنَّ هذه الأشياء الثّلاثة من بين الخوارق المفروضة هي الّتي سأل عنها الكفّار، ذلك أنَّ كفّار قريش، أبا جهل وابن أبي أُميَّة وغيرَهما جَلَسوا خلْف الكعبة، ثُمَّ أرسلوا إلى النَّبيِّ ﷺ، فقالوا: (لو وَسّعْت لنا جبال مكّة فسيّرْتها حتّى تتّسع أرضُنا فنحترثَها فإنَّها ضيّقة، أو: قرِّب إلينا الشَّام فإنّا نتَّجِر إليها، أو: أخرج قُصيًّا نكلّمه). ويؤيِّد هذه الرِّواية أنَّه تكرَّر فرْض تكليم الموتى بقوله في سورة الأنعام: ﴿*وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [سورة الأنعام: 111][3]. فكان في ذِكْرِ هذه الأشياء إشارة إلى تهكُّمهم.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿سُيِّرَتْ﴾ دون غيره:

بيان حركة التّسيير والاستمرار فيها، وكونها موازية لحركة الجبال يوم القيامة

التَّعبير بالفعل ﴿سُيِّرَتْ﴾ دون (زُحزحت) أو (حُرِّكت) في قوله: ﴿سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ له كبيرُ دلالةٍ؛ لأنَّ أصل الفعل (السّين والياء والرّاء)، وهي أصول تَدُلُّ على مُضِيٍّ وجَرَيانٍ، يُقال: سارَ

(1) القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 3/188.
(2) ابن عادل الدّمشقيّ، اللّباب في علوم الكتاب: 11/203.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/143.

يَسيرُ سَيْرًا، وذلك يكون ليلًا ونهارًا[1]، فالفعل ﴿سُيِّرَتْ﴾ فيه مُضِيٌّ وجريانٌ واستمرارٌ.

وثَمَّ سِرٌّ آخَرُ يتعلَّق بأحداث يوم القيامة، وتخصيص الفعل ﴿سُيِّرَتْ﴾؛ فالجبال ستُسَيَّر يوم القيامة لتكون سرابًا، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾ [النَّبأ: 20]، فإذا كان ذلك كائنًا يوم القيامة؛ فالقُرآن قادرٌ على أن يُحدِثَ ذلك في الدُّنيا لو كان كتابَ معجزاتٍ حِسّية لكن لن يكون؛ لأنّه كتاب هُدًى ونورٍ، وهذه المعاني لا تتأتَّى من (زُحزحت) أو (حُرِّكت)؛ لأنَّ أوْصاف الجبال في يوم القيامة لا تتأتَّى إلّا من التَّسْيير.

دلالة التَّعبير بالمبنيِّ للمَفعول: ﴿سُيِّرَتْ﴾:

في البناء للمَفعول تركيز للاهتمام بالحدث، بصرْف النَّظر عن مُحدِثِه[2]، وفي هذا إشارة إلى تركيزهم على حاجتهم في إحداث مَطلوبهم: (تَسْيير الجبال)، دون النَّظر إلى المُحدِث، وفيه إيجازٌ، وتمهيدٌ للمَطلوبات التّالية.

التَّركيز على الحدَث (تَسْيير الجبال)، بصرْف النَّظر عن مُحدِثه

دلالة التّعبير بحرف الجرِّ في ﴿بِهِ﴾:

دلَّ التَّعبير بـ (الباء) دون الظَّرْف (مع) في قوله تعالى: ﴿سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ على قوَّة التّسيير والمُضيِّ؛ لأنَّ الباء للسَّببيَّة، فدلَّت الباء على قوَّة القرآن، ومُحاولة الكُفّار تَعجيز الرَّسول ﷺ، و(مع) لا تُفيد هذا المعنى، قُصاراها الدَّلالة على المَعيَّة، فإذا سُيّرت الجبالُ معه فلا تأثير له فيها، ومن ثَمَّ كانت (الباء) هُنا هي الأكثر مُناسَبةً للإعجاز.

الإشارة إلى قوَّة التَّسيير والمُضيِّ

دلالة تقديم ﴿بِهِ﴾ على ﴿ٱلْجِبَالُ﴾:

التّقديم هُنا للاهتمام[3] بذِكْرِ المُقدَّم ﴿قُرْءَانًا﴾، والتَّركيز على

الاهتمام بذِكْر المُقدَّم (قرآنًا)، والتَّركيز على عمَله

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سير).
(2) عائشة عبد الرّحمن، التَّفسير البيانيّ للقرآن الكريم: 1/81.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/363.

عمله؛ وهو تَسيير الجبال؛ لأنَّ المعنى في حرْف الجَرِّ هو السَّببيَّة، والسَّببيَّة فيها الْتِصاق كبيرٌ بالحدَث فكان معنى الحرْف وتقدُّمه عاملَيْن مُهمّيْن في الاهتمام والاختصاص.

سِرُّ التَّعبير بالجمْع ﴿ٱلْجِبَالُ﴾:

الـدَّلالـة على الكثرة والتَّعدُّد وبيان أنَّ الجمْع هـو الأوفَـقُ بمُرادات النّصِّ والتَّركيب

سرّ التّعبير بالجمْع ﴿ٱلْجِبَالُ﴾ دون المفرَد له ثلاث فوائد، الأولى: الجمْع دالٌّ على الكثرة والتَّعدُّد، الثّانية: المُفرَد هُنا (الجبَل) لو قيل به لَدلَّ على عهْد ذهنيٍّ بجبَل بعَيْنه، والقرآن لا يَقصد جبلًا بعيْنه؛ وإنَّما يقصد أيَّ جبل، الثّالثة: التّناسُب الحاصل بين الجمْع ﴿ٱلْجِبَالُ﴾ والتَّشديد في الفعل ﴿سُيِّرَتْ﴾، فالتَّشديد دالٌّ على التَّكثير، والتّكثير يُقابل الجمع ﴿ٱلْجِبَالُ﴾؛ فكان الجمْع هو الأوْفق هنا بمُرادات النّصِّ والتَّركيب.

دلالة ترتيب الأمور الثّلاثة في الآية:

الأسـبـقـيَّـة في الزَّمن سِرُّ ترتيب هـذه الأشـيـاء الثَّلاثة الـواردة في الآية

يَتعلَّق سِرُّ التَّرتيب في قوله تعالى: ﴿سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ بفوائد؛ الأولى: حكاية كلامِهم، فقد بَدَؤوا بتَسْيير الجبال، ثُمَّ تَقْطيع الأرض، ثُمَّ تَكْليم الموتى، فعَرَض القرآن مقالتهم كما هي من دون تغيير أو تبديل، الثّانية: يتعلَّق بالزَّمن والتّاريخ، فقد قال الكفّار فيما قيل من أسباب النُّزول: سَيِّر لنا الجبال كما سُيِّرَتْ لداود (عليه السلام)، واقطَع لنا الأرض كما قُطِّعت لسليمان (عليه السلام)، وكلِّم لنا الموتى، كما كان عيسى يُكلِّمهم، فنزلت هذه الآية[1]، فداود أسبَقُ من سليمان ومعه تَسيير الجبال، وبعده سليمان ومعه تقْطيع الأرض، وأخيرًا عيسى ومعجزتُه تكْليم الموتى، فكان التَّرتيب الزَّمنيُّ عاملًا رئيسًا في ترتيب هذه الأشياء الثَّلاثة الواردة في الآية دون تقديم أحَدها على الآخَر، الثّالثة: تَسيير الجبال أقرَبُ وأعجَبُ لعِظَم جِرْمها وكونها جَمادًا لا يَقبل الاتِّصاف

(1) مكّيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 5/3739.

بصِفَة الحيوان، والسَّيْر من صِفة الحيوان، ولَم يَقع ذلك فيها بوجْه، ثُمَّ يَليه تقطيع الأرض لكثرة وقوعه، ويَليه تكليم الموتى؛ لأنَّه قد وَقَع لعيسى عليه السلام وغيره[1].

وممّا يُذكر أيضًا في سِرِّ التَّرتيب أنَّ تَسْيير الجبال له أهمّية في حياتهم نظرًا لطبيعة مكَّة الجبليَّة؛ فَقُدِّم لأهمّيته، وأمّا تقطيع الأرض وتكليم الموتى فهو من باب تعنُّتِهم ولَجاجهم في الإعراض عن دعوة الرَّسول ﷺ.

دلالة ﴿أَوْ﴾ في: ﴿أَوْ قُطِّعَتْ﴾:

تَنوُّع مَطالبهم بين مُشاهَد وغائب

جاء التَّعبير بـ ﴿أَوْ﴾ لأنَّها تَدُلُّ على منْع الخُلوِّ لا لمَنْع الجمْع، ولها معانٍ عِدَّة منها: الدَّلالة على التَّفصيل والتَّقسيم والتَّفريق المُجرَّد[2]، فدلَّ هذا على كثرة مَطلوباتهم وتنوُّعِها بين مُشاهَدٍ (تسيير الجبال، وتَشْقيق الأرض) وغائبٍ (تكليم الموتى)، وتدلُّ ﴿أَوْ﴾ على تأخُّرهم في السُّؤال لطَرْح مَطلوبات إعجازيَّة يَصعب تحقُّقها في الواقع المُشاهَد.

دلالة التَّعبير عن التَّشْقيق بـ ﴿قُطِّعَتْ﴾:

إرادتهم رؤية التَّقطيع أمام أعْيُنهم

جاء الفعل المُتَعلِّق بالأرض ﴿قُطِّعَتْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوْ قُطِّعَتْ﴾؛ لأنَّ التَّقطيع فصْل الشَّيْء عن الشَّيْء مُدْرَكًا بالأبصار أو مُدْرَكًا بالبصيرة[3]؛ فكأنَّهم يُريدون أن يَروا بأعيُنِهم عمليَّة التَّقطيع والتَّشقيق مع دلالة التَّشديد في الفعل ﴿قُطِّعَتْ﴾ على كثرة التَّقطيع وتَتابُعِه، بخِلاف التَّشقُّق فقد يكون ظاهرًا وقد يكون غير ظاهرٍ، وأيضًا لأنَّ التَّقطيع يَسبِقه التَّشقُّق؛ فَكُلُّ تقطيع يَشمَل التَّشقُّق لذا عُبِّرَ به.

معنى الباء في: ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾:

الباء هُنا دالَّة على معنى السَّببيَّة؛ والمعنى: قُطِّعت بسبَبِه الأرضُ،

(1) السّيوطيّ، معترك الأقران: 3/305.
(2) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 228، وابن هشام، أوضح المسالك: 3/341.
(3) الرّاغب، المفردات: (قطع).

بيان التِصاق التَّقطيع بالأرض وبيان سَبَبِه

وتَحتمل الإلصاق بمعنى أنَّ التَّقطيعَ مُلتَصِق تَمامًا بالأرض، مُختلِط بها، والإلصاق أو الإلزاق بتعبير سيبويه[1] هو المعنى الرَّئيس للباء، فما اتّسع من هذا في الكلام فهذا أصله، وكِلا المَعنيَيْن مُراد في هذا السّياق، فالباء دالَّة على قوَّة العمل وشِدَّته.

دلالة تقديم ﴿بِهِ﴾ على ﴿ٱلْأَرْضُ﴾:

بيان التَّركيز على العمل والتَّناسُب بين ثلاثة المَطلوبات

التَّقديم هُنا للاهتمام بِذِكْرِ المُقدَّم وهو القرآن، والتَّركيز على عمله وهو تقطيع الأرض؛ لأنَّ المعنى في الجارِّ هو السَّببيَّة أو الإلصاق، إضافة إلى المُناسبة بين ثلاثة الأشياء: (تسْيير الجبال، وتقْطيع الأرض، وتكْليم الموتى) في تقديم الجارِّ والمجرور على نائب الفاعل دوْمًا (الجبال، الأرض، الموتى)، ثُمَّ في تقديم الجارِّ والمجرور إبهام، وكان الإفهام بَعْد الإبهام أوْقَعَ في النَّفس[2].

دلالة (أل) في ﴿ٱلْأَرْضُ﴾:

إفادة العَهْديَّة والجِنسيَّة

نوع (أل) في كلِمة ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ عهْديَّة؛ فهُم يُريدون أرضَ مكَّة أو أرض الشّام[3] كما في أسباب النُّزول، وإذا جازَ أن تكون (أل) جنسيَّة، فأرضهم هي كلُّ الأرض، فلا أرض إلّا هي؛ كرامةً ومَهابة لها، وعادة القرآن أن يأْتيَ بالأرض مُفرَدةً دوْمًا في كلّ آياته؛ لأنَّ المُفرَد أخَفُ وزنًا ونُطْقًا من الجمْعيْن: (الأراضي) أو (الأراضين).

فائدة ذِكْرِ التّقطيع بعد التّسيير:

بيان قوَّة التَّأْثير والتَّأثُّر بين الأرض والجبال

هذا من قبيل عطْف العامِّ ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ على الخاصِّ ﴿ٱلْجِبَالُ﴾، وهو من المعاني الّتي أثْبَتَها النُّحاة[4] للواو، وذلك لبيان أنَّ الأرض هي سبب وجود الجبال، فلولا الأرض ما كانت جبال، والجبال هي سبَبُ ثَبات الأرض، فالجبال كالأوْتاد بالنِّسبة للأرض كما قال تعالى:

(1) الكتاب، سيبويه: 4/217.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/183.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 16/447.
(4) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 466.

﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ٧﴾ [النّبأ: 7]، فالعلاقة بينهما تأثير وتأثُّر، كلٌّ يفيد الآخَر، فإذا كان العامُّ ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ سببًا لعمل ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾، فالخاصُّ ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾ أهمُّ جُزء من أجزاء الأرض؛ لأنَّ بالجبال الثَّباتَ والقوَّةَ.

دلالة اختيار ﴿أَوۡ﴾:

بيان كثرة المطلوبات وتعدُّد القائلين

تَدلُّ ﴿أَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ﴾ على التَّفصيل والتَّفريق[1]، فدلَّ هذا على كثرة مَطلوباتهم، وفي ﴿أَوۡ﴾ الدّالَّة على التَّفصيل معنًى سياقيٌّ وهو جواز تعدُّد القائلين في المسألة؛ فبعضهم قال بتَسيير الجبال، وبعضٌ آخَر قال بتشْقيق الأرض، وبعضٌ ثالثٌ قال بتَكْليم الموتى، فجمَعَ القرآن كُلَّ هذه الأقوال، ونظمَها في سِلك واحد بتَوظيف ﴿أَوۡ﴾ في السّياق، إضافة إلى التَّناسُق بين تَوظيف الحرْف ﴿أَوۡ﴾ مع سابِقِه بالعطْف بين تقطيع الأرض، وتسيير الجبال ﴿سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ﴾.

نُكتة التَّعبير بـ ﴿أَوۡ كُلِّمَ﴾ دون (أحيا):

التَّكليم فيه إحياء وزيادة

إيثار التَّعبير بقوله: ﴿أَوۡ كُلِّمَ﴾ دون (أحيا) يُشير إلى أنَّ التَّكليم إحياء وزيادة، فيُمكِن الإحياء من دون تكليم، وهذا يعني أنَّ التَّكليم فيه فضلُ قوَّة وقُدْرة على الإحياء، فيُستطاعُ الإحياءُ، ولا يُستطاع التَّكليم، فتضمَّن ﴿كُلِّمَ﴾ معنى الإحياء؛ لأنَّه لازِمُه، أمّا الإحياء فلا يتضمَّن الكلام، فعبَّر القرآن عن الموتى بالتَّكليم لا الإحياء.

سِرُّ بناء الفِعْلِ لِما لَم يُسمّ فاعلُه ﴿أَوۡ كُلِّمَ﴾:

الاهتمام بالحدث بِصَرْفِ النَّظر عن مُحدِثه

البناء للمفعول تركيز للاهتمام بالحدَث، بصرْف النَّظر عن مُحدِثه، وفي هذا إشارة إلى تركيزهم على إحداث مَطلوبهم: (تكليم الموتى)، دون النَّظر إلى المُحدِث، وفيه إيجاز، إضافة إلى مُناسَبة البناء للمَفعول مع المَطلوبيْن الأوَّلَيْن، فالمطلوب الأوَّل ﴿سُيِّرَتۡ﴾ ببناء

(1) خالد الأزهريّ، شرح التّصريح على التّوضيح: 2/173.

الفعل لِما لَم يُسمَّ فاعله، والمطلوب الثّاني: ﴿قُطِّعَتْ﴾، فجاء المطلوب الثّالث مُناسِبًا للمطلوبَيْن السّابقيْن عليه.

دلالة تقديم ﴿بِهِ﴾ على ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾:

التّناسُب بين المُتعاطِفات والاهتمام بالتّكليم

تقديم الجارِّ والمجرور للاهتمام بعمليَّة التَّكليم، إضافة لِما في التَّقديم من مُناسَبة بين المطلوبات الثَّلاثة، فَكُلٌّ جارٍّ ومجرور ﴿بِهِ﴾ جاء مُتقدِّمًا على نائب الفاعل، وهذا من التَّناسُب بين المُتعاطِفات، وفي التَّقديم تشويق لِما بَعده حتّى تَنتظره النَّفس بشَوق وشغَف كالشَّوق للمتأخِّر، فيتمكَّن عند وُروده عليها أفضَلَ تمكُّن.

وممّا يُذكر أيضًا أنَّه قُدِّم الجارُّ والمجرور لقصْد الإبهام ثُمَّ التَّفسير لزيادة التَّقرير[1].

فائدة إيثار التَّعبير بـ ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾:

كون لفظة الموتى دالّة على مَن مات حقيقةً بسَلبِ الحياة ونَزْعِ الرّوح

في إيثار التَّعبير بـ ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ في هذا السّياق ثلاثُ فوائد، الأولى: قُدْرة القرآن على تكليم كلِّ المَوْتى مَن قَرُبَ موتُه ومَن بَعُد إنْ فعل ذلك؛ فلفظة ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فيها طول زمن الموت، وإغراق في الفناء، فلَم يبْق منها أثر[2]، ذلك أنَّ الكُفّار قالوا للنَّبيِّ ﷺ أحْيِ لنا آباءَنا وأجدادنا وفلانًا وفلانًا؛ فنزلَت الآية[3]، الثّانية: أنَّ (المَوْتى) جَمْعُ كثرة، مُقارنَة بـ (الأموات) الَّذي يُعَدُّ جمعَ قِلَّةٍ بوزن (أفعال)[4]، فالقرآن يستطيع أن يُكَلِّم كُلَّ الموتى لا الأموات فقط، فالأموات بعض الموتى فكانت لفظة (الموتى) ضامَّةً للأموات وزيادة، الثّالثة: الموتى نصٌّ في مَن ماتوا حقيقةً، وقد وردَتْ سبْعَ عشرةَ مرَّة في القرآن بمعنى الموت الحقيقيِّ، أمّا الأموات فتُستخدم لِمَن ماتوا حقيقة،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/22.
(2) الأمين الخضريّ، الإعجاز البيانيّ في صيغ الألفاظ، ص: 160.
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/313.
(4) العُكبَريّ، اللُّباب في علل البناء والإعراب: 1/321.

وكذا للموت المَعنويِّ بكُفرهم[1]، فكان المُناسِب هُنا توظيف ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لا (الأموات)؛ لأنّهم يريدون نصًّا مَن مات حقيقة.

وفي التّعبير بـ ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ مُبالَغة أكثر ممّا في (الأموات)؛ لأنَّ هذا الجمع (أموات) يأتي مُقابِلًا مع لفظ (أحياء)، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة: 154]، والآيات في هذا المقام عديدة، أمّا ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فلَم يَرِد في هذا التَّقابُل.

نكتة التَّذكير في: ﴿كُلِّمَ﴾ بعد ﴿سُيِّرَتْ﴾ و﴿قُطِّعَتْ﴾:

تغليب المُذكَّر على المؤنَّث

من قواعد النَّحو المقرَّرة أنَّ الفاعل إذا كان جمْع تَكسير، فإنَّه يجوز فيه إثبات التّاء وحذْفُها[2]، والوجْه هُنا في حذْف التَّاء من هذا الفعل مع إثباتها في الفعلَين قَبلَه على أنَّ الموتى يَشتمل على المُذَكَّر الحقيقيِّ والتَّغليب له؛ فكان حذْف التَّاء أحسَنَ[3].

وجْه ارتباط المقترَحات الثَّلاثة بالقرآن:

محاولة المُشركين المُستَميتة للتَّشكيك في القرآن الكريم

في قوله تعالى: ﴿سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ارتبطَتْ هذه المطلوبات بالقرآن دون الرَّسول ﷺ للمحاولة المُستميتة للتَّشكيك في القرآن الكريم؛ لأنَّ الكُفّار يَعلمون عِلْمَ اليقين أنَّ القرآن معجزة الرَّسول الكُبرى فكأنَّهم يقولون: نحن لا نُصدِّقك ولا نُصدّق ما أتَيْت به، فالقرآن في زعمهم كان مبنيًّا على عدم اشتمالِه على الخوارق، فنيطَ ظهورُها به؛ مُبالَغةً في بيان اشتمالِه عليها، وأنَّه حقيقٌ بأن يكون مصْدرًا لكلِّ خارقٍ، وإبانةً لرَكاكة رأيهم في شأنه الرَّفيع، كأنَّه قيل لو أنَّ ظهورَ أمثالِ ما اقترحوه من مقتَضيات الحِكمة لكان مُظهرُها هذا القرآنَ الَّذي

(1) فاضل السَّامرّائيّ، معاني الأبنية في العربيّة، ص: 115.
(2) ابن هشام، أوضح المسالك: 2/100.
(3) العُكبَريّ، التّبيان في إعراب القرآن، ص: 759.

لَم يَعدّوه آية، وفيه من تفخيم شأنه العزيزِ ووَصْفهم بركاكة العقل ما لا يَخفى[1].

دلالة تكليم ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ في سورتي الأنعام والرّعد:

التّناسُب بين تركيب الآيتَيْن

إيثار التَّعبير بالمبنيِّ للمَفعول في قوله تعالى: ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ مُناسب لِما قبْله ﴿سُيِّرَتْ﴾ و﴿قُطِّعَتْ﴾، كما أنَّ فيه تركيزًا على الحدث الحاصل وهو عمل التَّكليم، أمّا في سورة الأنعام؛ فالسّياق كُلُّه مبنيٌّ على الفعل المبنيِّ للمعلوم ﴿نَزَّلْنَآ﴾ [الأنعام: 111]، ﴿وَكَلَّمَهُمُ﴾ [الأنعام: 111]، ﴿وَحَشَرْنَا﴾ [الأنعام: 111]، يقول تعالى: ﴿*وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: 111]، ثُمَّ في آية الأنعام كان التَّركيز كذلك على مُحدِث الفعل بدلالة الضَّمائر الموجودة في الأفعال (نا) الفاعلينَ، والفاعل الظّاهر ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الأنعام: 111] فناسَبَ كُلُّ فعل سياقَه، وسابِقَه ولاحِقَه.

علاقة ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ بما قَبلَها:

بيان أنَّ قُدرة الله لا يُعجزها شيء وأنَّ إظهار المعجزات تابِع لِعِلْمه وحِكْمته

يتعلَّق قوله سبحانه ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ بما قبْله بعلاقة الإضراب عن طريق (بل)، وهو إضراب عن مَطالبهم المُتعنِّتة إلى بيان أنَّ الأمور كُلَّها بيَدِ الله، وأنَّ قُدْرَته سُبحانه لا يُعجِزها شيء، فلله القُدْرة على كُلِّ شيء، وهو قادر على الآيات الَّتي اقترحوها، إلّا أنَّ عِلْمَهُ بأنَّ إظهارها لا يَزيدهم إلّا طُغيانًا كَبيرًا يمنعه[2] لنُفورِهم عن الحقِّ وتَمَسُّكهم بباطلهم.

التَّعبير بـ ﴿بَل﴾ في: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ دون غيره:

تَرْك الأمر بالكلّيّة لله تعالى

سرُّ التَّعبير بـ ﴿بَل﴾ إضراب على جهة الإبطال، والانتقال إلى موضوع آخَر وهو تَرْك الأمر بالكلّية لله تعالى، فهو تنبيه على انتهاء

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/22.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/530.

غرَض، واستئناف غيرِه[1]، وعدَمُ وجود (بل) هُنا يُفكِّك أوْصال التَّركيب ويَقطع الرّابط بين الكلام، فلا يكون التَّركيب صحيحًا إلّا بوجود حرْف الإضراب (بل).

المقارنة بين تعبيرين:

تـعـدُّد المَطالب وكـثرتـها حيث جاءت (جميعًا)

وذلك في قوله تعالى: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ وفي قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: 154]، حيث آثر التَّعبير القرآنيِّ هنا الحالَ ﴿جَمِيعًا﴾ لأنَّه حيث ذكرَ الجميع ذكرَ جهات متعدِّدة[2]، ومَطالب شتَّى من تسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى، أمّا مَوْضع سورة آل عمران ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: 154]، فالأمر لا يَتخلله مَطالبُ شتَّى، وإنَّما قُصِدَ بالأمر النَّصْر على الأعداء وهزيمتُهم، ثُمَّ إنَّ التَّوكيد المعنويَّ ﴿كُلَّهُۥ﴾ [آل عمران: 154] يَقطع تفكير بعض المنافقين بأنَّ لهم بعضَ الأمر، فَسَدَّ الطَّريق على تفكيرهم بالتَّوكيد ﴿كُلَّهُۥ﴾ [آل عمران: 154].

دلالة تقديم لفظ ﴿لِلَّـهِ﴾ على ﴿ٱلْأَمْرُ﴾:

قَـصْـرُ الأمـر على الـلـه وحـــده لا شريك له فيه

تقدُّم الخبَر شِبْه الجُملة ﴿لِلَّهِ﴾ على المبتدأ ﴿ٱلْأَمْرُ﴾ إشارةٌ إلى الاختصاص والتَّملُّك، ورَمزٌ إلى التَّخصيص والحَصْر[3] بأنَّ الأمر لله وحده لا شريك له فيه؛ فدلَّ التَّقديم على القُدْرة المُطلَقة، والعظَمة الحَقَّة، وفي الحصْر تعريضٌ[4] بالكُفّار وآلهتِهم الَّتي لا تَملِك شيئًا.

دلالة اختيار لفظ ﴿ٱلْأَمْرُ﴾ دون غيره:

بيان أنَّ الأشياء كلّها بأمر الله تعالى

لمّا كان الحدث عظيمًا، وفيه صراع بين الحَقِّ والباطل، وثَمَّ أخْذٌ ورَدٌّ بين طائفة المُشركين، والرَّسول ﷺ، وظَّفَ التَّعبير القرآنيُّ لفظة

(1) المراديّ، الجنى الدّاني في حروف المعاني، ص: 236.
(2) فاضل السّامرّائيّ، على طريق التّفسير البيانيّ: 3/17.
(3) النّورسيّ، إشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز، ص: 146.
(4) النّورسيّ، إشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز، ص: 67.

﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ الدّالَّةَ على عِظَم المَوقِف وقوَّته، إضافة إلى سَعَةِ معناها وتعدُّد مَشاربها، فالأمر يَدُلُّ على وجوه: الأمر؛ أي: القضاء، كقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ﴾ [يونس: 3]؛ ويعني: يَقضي القضاء، وكَقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: 54]؛ أيْ: القضاء، والأمر: الدّينُ، كقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الأنبياء: 93]، وأصْل هذا كلِّه واحدٌ، لأنَّ الأشياء كلَّها بأمر الله تعالى، فسُمّيت الأشياء أمورًا[1].

فائدة إفراد ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ دون الجمع:

لُمفرَدَة ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ سِرٌّ مَكين، وفيها فائدتان: أولاهما: وحدة الشَّيء وعدَم تعدُّده[2]، فالمَوقف هُنا واحد؛ لذا يُناسِبه الإفراد دون الجمع، وسبب النُّزول شيء رئيسٌ في الفَهم والتَّفسير، والسَّببُ تحدّي الكفّار للرَّسول، فالمَوقف واحدٌ، أمّا الجمع (الأمور) فلا يُناسِب الموقف، ثانيتُهما: أنَّ الأمر هُنا جاء على الإفراد؛ إلْماحًا إلى قوَّة الهَيمنة والسَّيطرة من المُهيمِن؛ فصارت كُلُّ الأمور بسبب قُدْرته وعظَمته أمرًا واحدًا.

وحـدة الـشَّيء وعدَمُ تعدُّده مع القوَّة والهَيمنة

سِرُّ الاكتفاء بالأمر في: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ﴾:

آثَرَ التَّعبير القُرآنيُّ هُنا توظيف لفظة ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ فقط دون (الخلْق)؛ لأنَّه لا خَلْق هُنا، فالآية مبنيَّة على أسلوب الشَّرْط ﴿وَلَوۡ﴾ الَّذي يعني الامتناع، أمّا قوله تعالى ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: 54] فزيادةُ لفظة ﴿ٱلۡخَلۡقُ﴾ [الأعراف: 54] تُناسِب السّياق حقَّ المُناسَبة، يقول تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٥٤﴾ [الأعراف: 54]، فالمُتبادر أنَّ الآية واضحَةُ المَعالِم في الخَلْق:

مُراعاة السّياق في كُلٍّ من السّورتَيْنِ

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/465.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 12/7340.

خَلْق السَّماوات والأرض، واللَّيل والنَّهار، والشَّمس والقمر والنُّجوم فناسَب كُلُّ تعبير مَوقِفه وسياقَهُ، فزادَ لفظة ﴿ٱلۡخَلۡقُ﴾ [الأعراف: 54] حينَ كان السّياق مَشحونًا بعمليَّة الخلْق، واكتفى بالأمر وحدَه في الرَّعد حيث لا خَلْق ولا إيجادَ.

دلالة التَّعبير بـ ﴿جَمِيعًا﴾:

مُـراعـاةً لتَعدُّد الـــجِـــهـــات والمَطَالِب

آثَرَ التَّعبير القرآنيُّ الحالَ ﴿جَمِيعًا﴾ لأنَّه حيث ذكرَ الجميع ذكرَ جِهات متعدَّدة[1]، ومَطالِب شتَّى من تسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى، وهذا لا يدلُّ عليه التَّوكيد المعنويُّ (كُلّه)، وفي الكلمة تأكيد لاستغراق كُلِّ أمرٍ[2]، ثُمَّ كان توظيف ﴿جَمِيعًا﴾ أيضًا دالًّا على تعدُّد الرِّسالات والمعجزات، فكلُّ أمرٍ تلك الرِّسالات إنَّما صَدَرَ عن الحَقِّ سُبحانه؛ وهو الَّذي اختار كُلَّ مُعجِزة لتُناسِبَ القوم الَّذين يَنزل فيهم الرَّسول[3].

بلاغة أسلوب الحَكيم في الجواب:

ضرورة الاهتمام بما هو أوْلى

في قوله: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًا﴾ توظيفٌ لأسلوب الحكيم، وفيه إشارة إلى أنَّ الإيمان باللّه وما أنزل أوْلى من اللَّجاجة ومُحاولة العِناد من دون فائدة مَرجوَّة، فللّه أمر كلِّ مُحَدَثٍ، فهو الَّذي أنزل الكتاب، وهو الَّذي يخلُقُ العجائب إن شاء، وليس ذلك للنّبيِّ ﷺ ولا عند سؤالِكم، فأمرَ اللّه نبيَّه بأن يقول هذا الكلام؛ إجراءً لكلامهم على خِلاف مُرادِهم على طريقة أسلوب الحكيم، لأنَّهم ما أرادوا بما قالوه إلّا التَّهكُّم، فحمل كلامهُم على خِلاف مُرادهم؛ تَنبيهًا على أنَّ الأوْلَى بهم أن يَنظروا هل كان في الكُتُب السّابقة قرآن يَتأتَّى به مثل ما سألوه[4].

(1) فاضل السّامرّائيّ، على طريق التّفسير البيانيّ: 3/17.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/144.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 12/7340.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/144.

دلالة الاستفهام في: ﴿أَفَلَمْ﴾:

مِنَ الحالِ يُعْرَفُ المآلُ

جاء الاستفهام في الآية الكريمة حاملًا علامات الإنكار[1] لطَمَع المؤمنين في إيمان الكفّار، والمعنى: أفَلَم يَيْئَسِ الَّذين آمنوا من إيمان الكفّار من قريش، وذلك أنَّهم لمّا سألوا هذه الآيات طَمِعوا في إيمانهم، وطَلَبوا نزولَ هذه الآيات ليؤمِنَ الكفّارُ، وعَلِم الله أنَّهم لا يؤمنون، فقال: أفَلَم يَيْئَسوا من إيمانهم، ويُراد من الاستفهام التَّقريرُ، ويُراد به أخْذ اعتراف المؤمنين باليأس من إيمان هؤلاء المشركين، وقَطْع الرَّجاء في أنْ يكونوا يومًا من المؤمنين.

دلالة الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ﴾:

شِدَّة تَعَلُّق آمال المؤمنين بإسلام هؤلاء الكفّار

الفاء الواقِعَةُ بعد الهمزة حرْف عطْف[2]، ومن ثَمَّ فالمعطوف يُقَدَّر على حسب السّياق، وتقديره هُنا "أغَفَلوا عن كون الأمر جميعًا لله تعالى فَلَم يَعلموا؟"[3]، والفاء دالَّة على شِدَّة تعلُّق آمال المؤمنين بإسلام هؤلاء الكُفّار وسُرعة ذلك بعد تحقيق مَطالِبهم على الرَّغم من عِلْم المؤمنين بعِناد الكفّار ولَجاجتِهم.

سرُّ التَّعبير بـ (لَم) دون (لا) في: ﴿أَفَلَمْ﴾:

زَجْـر المؤمنين لعدَمِ يأسهم من إيمان الكفّار

آثَرَ القرآن الكريم تَوظيف (لَم) لأنَّها أداةُ جَزْم وقلْبٍ، تَقلِب زمن المُضارع إلى الماضي[4]، وكأنَّ التَّعبير: أما يَئِسْتُم منهم؟ فهُناك شواهِدُ تَدعوكم إلى اليأس من إيمانهم. أمّا التَّعبير بـ (لا) فلا يَمنح التَّركيب القرآنيَّ هذا المعنى وهذا الزَّمن، وكان المؤمنون يَودّون أن يؤمنَ صناديدُ قريش كي يَخِفَّ الجهْد عن

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/22.

(2) وفيه أقوال أخرى كأن تكون الفاء استئنافيّة، أو زائدة، والزّيادة لا تكون في القرآن البتّة، أو هي الفصيحة الَّتي أفصحتْ عن شرط مقدَّر، وابن جرير، جامع البيان: 2/399، ومحمد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3951.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/22.

(4) الأشمونيّ، شرح الأشمونيّ على ابن مالك: 1/317.

الفِئة المُسلِمة؛ فلا يضطهدوهم، ولا يضايقوهم في أرزاقهم ولا في عيالهم[1].

بلاغة المَجاز في إطلاق لفظ اليأس:

بيان رغبة المؤمنين في إسلام الكفّار مع اليأس منهم

إيثار ﴿أَفَلَمْ يَأْيَئِسِ﴾ هُنا آتٍ من حُسْنِ المُلازَمة في إطلاق لفظ اليأس، والمُراد به العِلم، مع الاستفهام والنَّفي لرَغبة المؤمنين في إسلام هؤلاء مع بُلوغهم العِلم في كون هؤلاء مَيْئوسًا من إيمانهم، والمُلازَمة توجِب حُسن المَجاز، فلهذا السّبب حسُن إطلاقُ لفظ اليأس لإرادة العِلم بطَريق المَجاز المُرسَل بعلاقة اللُّزوم[2].

نُكتة اصطفاء ﴿يَأْيَئِسِ﴾ دون (يَقنط):

اليأس أمرٌ قلبيٌّ والقنوط ظُهور آثارِه على ظاهر البدَن

آثَرَ التَّعبير القرآنيُّ الفعل ﴿يَأْيَئِسِ﴾ دون (يَقنط) على الرَّغم من تقارُب المعنى بينهما، وذلك لفائدتَيْن، أمّا الأولى فهي التَّوسُّع في المعنى، ذلك أنَّ ﴿يَأْيَئِسِ﴾ تَحتمل العِلم[3]، وتَحتمل قطْع الرَّجاء، أمّا (يَقنط) فلا تَحتمل إلّا معنًى واحدًا، وهو قَطْعُ الرَّجاء، أمّا الفائدة الثّانية فهُناك فرْق بين اليأس والقُنوط، فاليَأس مَنبَعُه القلب، والقُنوط ظُهور آثارِه على ظاهر البدَن[4]، وهؤلاء مؤمنون لا يَليق بهم القُنوط؛ فلا يَقنط إلّا الضّالّون.

سرّ التّعبير بالمضارِع ﴿يَأْيَئِسِ﴾:

الإيذان باستمرار الأمل عند المؤمنين في إيمان الكفّار

عبَّر النَّظْم الكريمُ بالفعل المُضارع للإيذان باستمرار الأمل في إيمان الكفّار، فالأمر ظَلَّ مُلازِمًا للمؤمنين بإسلام الكفّار؛ حتّى يَعيش الجميع في إسلام وسلام، فكان التَّفكير في الأمر مرَّة تِلْوَ مرَّة، لا يتوقَّف ولا يَتزحزح، فالفعل المُضارع فعل مُخَضَّبٌ بأمل

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 12/7441.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/42.

(3) جاء في البرهان للزّركشيّ: 1/109: "وَكُلُّ شَيْءٍ فِي القُرْآنِ مِنْ يَأْسٍ فَهُوَ القُنُوطُ إلَّا الَّتي في الرَّعْدِ: ﴿أَفَلَمْ يَأْيَئِسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، أَيْ: أَلَم يَعْلَمُوا". وربما يكون الفعل ﴿يَأْيَئِسِ﴾ من الأضداد، لأنّه أفاد العِلم وأفاد عدَم العِلم أيضًا بانقِطاع الرّجاء.

(4) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/9.

الإيمان ورجائِه، وفي هذا دليلٌ على سماحة المؤمنين وحِرْصهم على إيمان هؤلاء الكفّار.

دلالة التَّعبير بـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ دون (المؤمنون):

ثَبات ذلك الإيمان في نُفوسهم، وظُهوره في سُلوكهم وطَبائعهم

إيثار القرآن للاسم الموصول أو الاسم النّاقص ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مع صِلَته - والصِّلَة هي المُبَيِّنة والمُكمِّلة - فيه إيماءَة إلى ثَبات ذلك الإيمان في نفوسهم، وظُهوره في سُلوكهم وطبائعهم، فالجُملة المَوصوليَّة أفادَتِ المَدْح والتَّقريظَ، إضافة إلى ذلك، فالاسم الموصول مع الفعل الماضي دلَّ على زمان ماضٍ مُحدَّد، عكْس اسمِ الفاعل الَّذي لا يدلُّ على زمان محدَّد، "وفي لفظ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ - بناءً على أنَّه موصول، ومن شأْنِ الموصول أن يكون معهودًا نُصْبَ العَيْن للسّامع - إشارةٌ إلى عُلوِّ شأنهم وتَلألُؤهم في ظُلُمات البشَر، كأنَّهم مَعهودون نُصْب العيْن لكلِّ سامِع وإن لَم يَتحرَّ ولَم يَطْلب"[1].

دلالة ﴿أَن﴾ المخفَّفة:

التَّأكيد على جَواز أن يكون (يَيأس) بمعنى يَعلم

دلالة ﴿أَن﴾ المُخفَّفة في قوله: ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ التَّحقيق والتَّأكيدُ، فيجِب أن تُسبَق بعِلم[2]، ووَجَب أن يكون الفعل الَّذي تُبنى عليه مُطابِقًا لها في المعنى، بأن يكون من أفعال العِلم واليقين ونحْوهما، وهذا يُقوّي معنى العِلم في الفعل ﴿يَاْيْـَٔسِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ فإنَّ ﴿أَن﴾ هُنا سُبِقت بما يدلُّ على العِلم وهو ﴿يَاْيْـَٔسِ﴾؛ أيْ: مِن إيمان جميع الخَلْقِ ويَعلموا أو يَتبيَّنوا ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[3].

---

(1) النّورسيّ، إشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز، ص: 34.

(2) الحازميّ، فتح ربّ البريّة في شرح نظم الآجرّوميّة، ص: 263.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/461، جاء في المفردات للرّاغب: "ومتى قويَ (الظّن) أو تُصوِّر تَصوُّرَ القويِّ استُعمل معه (أنّ) المشدّدة، و(أن) المخفّفة منها"، ص: 539.

دلالة ﴿لَّوۡ﴾:

الحِكمة العظيمة في كُلِّ ما يتعلَّق بأمور الهداية والضَّلالة

لهذا الحرْف دلالةُ القُدْرة المُطلَقة، والحِكمة العظيمة في كلِّ ما يتعلَّق بأمور الهداية والضَّلالة؛ لأنَّ الحرْف يدلُّ (على امتناع تالٍ يَلزَم لثُبوته ثبوتُ تاليهِ)[1]؛ ويؤدي في قوله تعالى: ﴿أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ معنى: (لو شاء الله هداية كلِّ النّاس لَهداهم، لكنَّه جعل ذلك وفْقَ حُكمِه وحِكْمته)، وكذا فـ"التَّصريح بلفظة ﴿ٱللَّهُ﴾ إشارة الى دَعوة الأذهان إلى رؤية يَدِ القُدْرة خَلْف كلِّ الأسباب"[2].

سرُّ التَّعبير بالمَشيئة دون الإرادة:

قوَّة الدَّلالة على أنَّ كُفرهم كان باختيارهم

آثَرَ التَّعبير القرآنيُّ لفظة ﴿يَشَآءُ﴾؛ لأنَّ المَشيئة لا تكون إلّا مع اختيار؛ لذا لا يُقال إلّا للعالِم أو المُتفكِّر، أمّا الإرادة فتَختصُّ بالعُقلاء وغيرهم؛ فتُستَعمل في الجمادات، قال تعالى: ﴿جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: 77][3] والجملة قويَّة الدَّلالة على أنَّ كُفرهم كان باختيارهم[4].

دلالة إسناد المَشيئة إلى ﴿ٱللَّهُ﴾:

تربية المَهابة في النُّفوس وإدخال العظَمة في القلوب

آثَرَ القرآنُ لفظةَ ﴿ٱللَّهُ﴾ الاسم الأعظَمَ؛ لتربية المَهابة في النُّفوس، وإدخال التَّعظيم في القلوب؛ فاللَّفظ أدْعى للقوَّة والجَبَروت، إضافة إلى أنَّ اسم الجلالة يدلُّ على القُدْرة التّامَّة الشّاملة الَّتي هي لازِمة للأُلوهيَّة[5] ولا يُؤدّي لفظ (الرَّبّ) هذا المعنى؛ لأنَّ فيه معنى التَّربية والحُنوِّ والشَّفقة المُستفادة من (الرَّبِّ) والمَوقف هُنا يَستدعي الصَّرامة في مواجهة هؤلاء الكفّار الَّذين يَلْتذّون بالكُفر، ويَستشْرِفون آفاقَ الطُّغيان واللَّجاجة، فكان الاسم الأعظم هو الأنسَبَ للسّياق، إضافةً لذلك فكلمة (الرَّبّ)

(1) المراديّ، توضيح المقاصد والمسالك: 3/1297.
(2) النّورسيّ، إشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز، ص: 145.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب، ص: 152.
(4) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/543.
(5) النّورسيّ، إشارات الإعجاز، ص: 145.

لَم تَرِد في القرآن مُعرَّفة بالألف واللّام ألبتة، وإنَّما جاءت معرَّفة بالإضافة فحسب[1].

دلالة اللّام في قوله: ﴿لَهَدَى﴾:

القُدرة المُطلَقة على الهداية والرّشاد

وقوع اللّام في جواب ﴿لَوْ﴾ يُقوّي الجُملة ويُؤكِّدها ويُزيل أدْنى شَكٍّ في نفْس المُتلقّي، فاللّام هُنا دالَّةٌ على القُدْرة المُطلَقة على الهداية والرَّشاد، فهو وحدَه المُتحكِّم في الأمر، يَحكم ما يُريد بعِزَّته وقُدْرته، عِلْمًا بأن جواب ﴿لَوْ﴾ يجوز أن يَقترن باللّام، وهو الأكثر، وتَرْك اللّام في الجواب قليل[2]، فجاءت الآية على الأكثر لا الأقلّ.

سِرُّ حذْف مفعول ﴿يَشَآءُ﴾:

الدّلالة على الاختصار والإيجاز

آثَرَ التَّعبير القرآنيُّ حَذْفَ المفعول، لدلالة جواب الشَّرْط عليه[3]، فجواب الشَّرْط ﴿لَهَدَى﴾، وهذا يعني أنَّ المفعول المحذوف تقديره (يشاء الهدايةَ)، ويَدخل في ذلك قيمة الاختصار والإيجاز[4] في العبارة، وفيه إيماءٌ إلى عدم تأثُّر المَشيئة والإرادة الإلهيَّة بأحوال الكائنات وعدم تأثير الأشياء في الصِّفات الإلهيَّة كما تتأثَّر إرادة البشَر بِحُسْنِ الأشياء وقُبحِها وعظَمتها وصِغرها[5].

لطيفة التَّعبير بـ ﴿لَهَدَى﴾ دون غيرها:

التّنبيه على أنَّ المَقام مقامُ لَجاجة وضلال

عبَّر النَّظْم الكريمُ هُنا بالفعل ﴿لَهَدَى﴾؛ لأنَّ المَقام مقامُ لَجاجة وضلال، واستِعْذاب كُفْرٍ، فناسَب ذلك الضَّلالَ ضدُّه، وهو الهداية بلفظة (هدى)، فلفظة (هدى) تُبيِّن قُبْح الضَّلال وتُعرّيه من كلِّ خير، ومن ثَمَّ كان الأنسَبُ هُنا لفظة (هدى)، إضافة إلى أنّ لفظة (هدى) هي ثمرة الدَّعوة ولُبُّها، فكان التَّعبير بها في هذا السّياق هو الأوْلى.

(1) د السيّد خضر، التّشكيل الجماليّ في النّظم القرآنيّ، ص: 104.
(2) خالد الأزهريّ، شرح التّصريح على التّوضيح: 2/422.
(3) القزوينيّ، الإيضاح: 2/156.
(4) القزوينيّ، الإيضاح: 2/159.
(5) النّورسيّ، إشارات الإعجاز، ص: 145.

دلالة التَّعبير بالماضي: ﴿لَهَدَى﴾:

ثَبات الهداية وتأكيد القُدرة على إحداثها حسب الإرادة الحَكيمة

لمّا كانت الهداية بيَدِ الله، فهو يهدي مَن يشاء ويُضِلُّ مَن يشاء، ناسَب ذلك أنْ يكون جواب الشَّرْط فعلًا ماضيًا مُقترنًا باللّام؛ لبيان السَّيطرة والهيمنة، فكأنَّ الهداية حادثةٌ وقتما يُريد، وساعةَ يَشاء، لكنّ هؤلاء لَم يكونوا أهلًا لذلك، فلَم يهدهم مع قُدْرته على ذلك، يُؤكِّد هذا أنَّ الفعل الماضيَ جاء تحقيقًا للأمر، وتثبيتًا له[1].

دلالة التَّعبير عن (الكفّار) بلفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾:

أهميَّة إسلام كُفّار مكَّة لأنَّ إسلامهم نَواةٌ حقيقيَّة لنُصرة الدّين

في قوله تعالى: ﴿أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۗ﴾ العِبرة ليست بخُصوص اللّفظ بل بعُموم السّبب، فليست الهداية مقصورةً على كفّار قريش وحدهم، وإنَّما هي للنّاس كافَّة، ثُمّ إنّ التّعبير هكذا قد يجري مجرى المثَل، فيُنطق وحدَه من دون سياق؛ فيُقال في معرض الكلام: (ولو يشاء الله لَهدى النّاس جميعًا)، وذلك التَّعبير من باب المَجاز المُرْسَلِ صاحَب علاقة الكلّية، حيث ذَكر الكُلَّ ﴿ٱلنَّاسَ﴾، وأراد الجُزء (كفّار مكَّة)، وعِلَّة ذلك أنَّ هؤلاء الصَّناديد هُم النّاس قوَّة ومَهابةً دنيويَّةً، فلو أسلموا لكانوا النَّواة الحقيقيَّة لإسلام كُثارِ النّاس غيرهم، وهُناك مَلْحظ آخَر يَتعلَّق بما بَعد هذا المقطع؛ فبعْدَه مُباشرة: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، فكان ما بعده ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تخصيصًا لِما قبْله ﴿ٱلنَّاسَ﴾.

نُكتة التَّعبير بـ ﴿جَمِيعًاۗ﴾ دون (كلّهم):

بيان القُدْرة المُطْلَقة للهداية في وقتٍ واحد

للتَّعبير بـ ﴿جَمِيعًاۗ﴾ دون (كلّهم) فائدتان، الأولى: مُناسَبة اللَّفظة هُنا لِلَفظة ﴿جَمِيعًاۗ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾، فإذا كان الأمر لله جميعًا فهداية النّاس جميعًا من الأمر، الثّانية: لفظة ﴿جَمِيعًاۗ﴾ تَدلُّ على اتِّحاد الزَّمن، وهذا يَرسِم صورةَ القُدْرة

(1) ابن جنّي، الخصائص: 3/334.

المُطلَقة على هداية كُلِّ النّاس في وقت واحد مَجموعينَ، فكأنَّ الحال ﴿جَمِيعًا﴾[1] جاء لرَفْع وهْم مَن يَتوهَّم أنَّ الله غير قادر على هداية النّاس في وقتٍ واحدٍ، وهذا لا يُفيده التَّوكيد المَعنويُّ (كلّهم)، فـ"الكلُّ يُفيد الإحاطة دون الاجتماع"[2].

دلالة فصْل مَقاطِع الآية بعضها عن بعض:

تعدُّد موضوعات المقطَع وتداخلُها

في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ فصْل المَقاطِع له سببٌ مَكين، وهو تَعدُّد موضوعات الآية الكريمة، فالعُنوان العامُّ للآية الكُفر والإيمان لكنَّها ضمَّت عددًا كبيرًا من الموضوعات؛ مثل: الحوار، وقُدْرة الله، والهداية، وإصابة الكفّار بالقوارِع والمصائب، وذِكْر عذاب الله، موضوعات شتَّى في الآية لكن رابطها الأكبر الكُفر والإيمان، فحَوْل هذي المَقاطِع تَدور الآية الكريمة الّتي "عرضَتْ أكثر من مَوقف، ولأكثر من جماعة، فأوَّلًا: المُشركون، وعِنادهم، وضلالهم، وثانيًا: الَّذين يَعجبون لهذا الحُكْم الَّذي حكمَ به على المشركين سواء أكانوا من المؤمنين أم من المشركين، وثالثًا: المؤمنون الَّذين كانوا لا يزالون على طَمَعٍ في أنْ يَلْحق بهم آباؤهم أو أبناؤهم، ورابعًا: هذا اليأس الَّذي وقَعَ في نفوس كثير من المؤمنين الَّذين كانوا يطمعون في أنْ يَلحق بهم أهْلوهم، وهكذا أشرفَتْ كلِمات الله من عَلٍ على النّاس جميعًا مؤمنين، ومشركين، وخاطَبَتْ كُلَّ فريق منهم الخِطاب الملائمَ له، وكان من مُقتضى الحِكمة ألّا تجْمع بينهما في

(1) مفهوم من كلام ابن هشام عن (أجمعون)، يُنظر: شرح شذور الذّهب، ص: 553.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 7/391.

هذا الموقف جامِعةٌ، الأمر الَّذي أوجَبَ عزْلَ مَقاطع الآية بعضها عن بعض[1].

دلالة الواو في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ﴾:

تهديد الكفّار ووَعيدُهم على تَعنُّتهم وإصرارهم على الكُفْرِ

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ جاءت الواو استئنافيَّة[2]؛ كي تَفتَتِح موضوعًا جديدًا خاصًّا بالَّذين كفروا وكأنَّها تقول لهم: (وإن لَم تؤمنوا فستظلُّ العُقوبات الدُّنيويَّة موجَّهة لكم صائدة، ففي الإيمان نجاة، وما تَفعلونه يُؤذيكم ويُخزيكم)، ويجوز أن تكون عاطفة؛ أيْ: إنَّ الجملة معطوفة على جُملة ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ على بعض الوجوه في تلك الجُملة، وهي تهديد بالوعيد على تعنُّتهم وإصرارهم على عدم الاعتراف بمعجزة القرآن، وتهكُّمِهم باسْتِعجال العذاب الَّذي تُوعِّدوا به، فهُدِّدوا بما سيحلُّ بهم من الخوف بحُلول الكتائب والسَّرايا"[3]، إضافة لذلك فإنَّه لمّا عُلم أنَّ بعضهم لا يُؤمن، ضاقَتْ صدور المؤمنين لذلك لِما يُعاينونَه من أذى الكفّار، فأتْبَعه ما يُسَلّيهم عاطفًا على ما قدَّرَه من نتيجة عدَمِ المَشيئة[4] من أنَّهم تُصيبهم قارِعةٌ.

نكتة اختيار التَّعبير بالفعل ﴿يَزَالُ﴾:

بيان عاقِبة الكُفّار إن هُم لَجّوا في طُغيانهم يَعمهون

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الفعل ﴿يَزَالُ﴾ في أصله (زال) يدلُّ بذاتِه على النَّفْي، وعدَمِ وجود الشَّيءِ؛ من غير أن يحتاج في هذه الدَّلالة للفظٍ آخَر، فكان الفعل بنفْسه من غير تقدُّم نَفْي أو شبهه تحذيرًا لهؤلاء بالزَّوال والاندثار إنْ هُم لجّوا في طغيانهم يعمهون، وثَمَّ مَلمحٌ آخَر وهو عادة القرآن هُنا، فالقرآن مع (يَزال) المضارع لا يستخدم سِوى (لا)، فكانت الآية تعزيزًا لعادة القرآن الكريم.

(1) الخطيب، التفسير القرآنيّ للقرآن: 3/125.
(2) الدّعّاس، إعراب القرآن، ص: 130.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/145.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/345.

دلالة التَّعبير بالمُضارِع ﴿وَلَا يَزَالُ﴾:

تنبيه الكفّار إلى استمرار الوَعيد حتّى يأتيَ وعْد الله

يَظهر سِرُّ التَّعبير بالمُضارع تنبيهًا لهم بأنَّ ذلك عِقاب من الله تعالى ووعيد بأنَّ ذلك دائمٌ فيهم حتَّى يأتيَ وعْد الله، ولعلَّها نَزَلَتْ في مُدَّة إصابتِهم بالسِّنين السَّبع المُشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: 155]، عِلْمًا بأنَّ بعض العلماء جَعلوا هذه السُّورة مدنيَّة، وكان التَّأويل عندهم أنَّ القارِعة السَّريَّةُ من سَرايا المُسلمين الَّتي تَخرج لتهديد قريش ومَن حَوْلهم[1].

نُكتة التَّعبير بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لا بعضهم:

العِبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص سَببِه

في العموم بخِطاب ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فائدتان؛ الأولى: تَحقُّق وقوع العذاب على كلِّ الَّذين كفروا لا على فريق بعَيْنه، فالمسألة كائِنَة إلى أن تقومَ السّاعة، فهُنا "وَعيدٌ لِلكُفّارِ عَلى الْعموم"[2]، والثّانية: أنّ ما يَصْدق على بعضهم يَصْدُق على الجميع؛ لأنَّ الجميع يُؤيِّد البعْضَ، فصار الحُكْم عامًّا لرِضا البعض بعمل الكلِّ، يقول الرّازيُّ: "أراد به جميع الكفّار؛ لأنَّ الوقائعَ الشَّديدة الَّتي وقعَتْ لبعض الكفّار من القتل والسَّبْي، أوجَبَ حُصولَ الغمِّ في قلب الكُلِّ"[3].

سرّ التّعبير بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لا (الكافرون):

ثبات الكُفرِ في نفوسهم، واستِمساكهم به

إيثار القرآن للاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مع صِلَته؛ فيه إيماءةٌ إلى ثبات الكُفر في نفوسهم، واستمساكهم به؛ فلا مَجال لتَغْيير عقيدتهم، فالجُملة الموصوليَّة أفادت الذَّمَّ؛ فإتيان الموصول الماضي قُصِد به الالتباس والاستصحاب[4]، إضافة إلى ذلك فالاسم الموصول مع صِلته يَدُلُّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/145.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/101.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/43.
(4) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 1/187.

على اختيارهم الكُفر بإرادتهم من دون تَدَخُّلٍ في اختيارهم، فكان التَّعبير بالاسم الموصول وصِلَته دون اسم الفاعل هو الأنسب.

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿كَفَرُواْ﴾:

بيان أنَّ كُفرهم صار صِفة لازِمة ثابتة في طِباعهم

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ثمَّة تَوظيف للفعل الماضي - مع أنَّ المُضارع مُناسِب للفعل ﴿وَلَا يَزَالُ﴾ - دَلَّ على أنَّ الكُفْرَ صار صفَة لازِمة لهم، لا ينفكّون عنه، والفعل الماضي هو الَّذي يَرسم صورة الكُفْرِ هُنا، أمّا توظيف المضارع فهو غير مُناسِب؛ لأنّه يُشْعِرُ أنَّ الكُفْرَ جديد حادِثٌ، ثُمَّ إنَّ العدالة الإلهيَّة تقتضي نزول العذاب والقوارِع على مَن ثَبَتَ كُفْرُه ولَجَّ فيه دون غيره من مُحدثي الكُفر، والفعل الماضي هو الَّذي يُترجم هذا التَّناسُب لا المضارع؛ لأنَّه حقيق بالثَّبات.

دلالة إيثار الفعل ﴿كَفَرُواْ﴾ على (أشركوا):

التّأكيد على أن حالة الكفّار هي حالة الإنكار التّامّ واللّجاجة

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إيثار للقرآن الكريم لِذِكْرِ الكُفر دون الشِّرك، وهو إيثارٌ آتٍ من أنَّ الكُفر مُناسب للسّياق، وهو هُنا سياق الجحْد والإنكار وعدم الإيمان بالرِّسالة والرَّسول والقرآن مع عِلمهم بأنَّ القرآن كلام الله، فكأنَّهم سَتَروا ضياء عُقولهم[1] بالكُفْرِ، أمّا الشِّرك فهو صرْفُ نوْعٍ من أنواع العِبادة لغير الله تعالى، وهذا لا يُناسِب المقام هُنا فحالتهم هي حالة الإنكار التّامِّ واللَّجاجة؛ فكان الفعل ﴿كَفَرُواْ﴾ أنسَبَ من أشركوا، إضافة إلى ذلك فهو يتناسَب مع قوله تعالى ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

لَطيفة التَّعبير ﴿تُصِيبُهُم﴾ دون (تَمَسُّهُم):

الإصابة أقوى تَمَكُّنًا من المَسّ

آثَرَ التَّعبير القرآنيُّ التَّعبيرَ بـ ﴿تُصِيبُهُم﴾ دون (تمسُّهم)؛ لأنَّ في الإصابة قوَّة وشِدَّة في التَّأثير، عَكْسَ المَسِّ الَّذي قد يكون يَسيرًا سَهْلًا غير مُؤَثِّرٍ فيهم؛ فهو مُطلَق إصابةٍ من دون تقييد بشِدَّة أو ضَعْفٍ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/345.

وعليه يكون المَسُّ أقلَّ تَمكُّنًا من الإصابة[1]، وهو أقلُّ درجاتها[2]، ولِوجود فرْق بين المسّ والإصابة، هو أنَّ المَسَّ اتِّصال أحد شَيْئَيْن بآخَر على وجه الإحساس، والإصابة أصلُها من إصابة السَّهم، فالإصابة في الخير اعتبارًا بالصَّوب؛ أي: المطَر، وفي الشَّرِّ اعتبارًا بإصابة السَّهم، وكلاهما يرجعان إلى أصل (أصاب)، ومنه يُعلم أنَّ الإصابة أبلَغُ من المَسِّ لأنَّه وإن اعتُبِر فيه التَّأثير، لكن تأثير أصاب لمّا كان كالمطر أو السَّهم كان أقوى وأشدَّ[3]، والموقف هُنا موقف شِدَّةٍ وبأسٍ، فلا يُناسبه المَسُّ، يُضاف إلى ذلك أنَّ الفاعل هو ﴿قَارِعَةٌ﴾، وفيها من الهَوْلِ والشِّدّة ما فيها، فلا يُناسِبه الفعل (يمسُّهم) ألبتَّة.

دلالة التَّعبير بالمضارِع ﴿تُصِيبُهُم﴾:

الإيذان باستمرار الإصـــابـــة وتَجدُّدها

عبَّر القُرآن بالفعل المضارع ﴿تُصِيبُهُم﴾ للإيذان باستمرار الإصابة ودَوامها كأنَّها مُشاهَدة؛ وذلك لِعُتوِّهم وكُفرهم، وهذا يعني أنَّ القارِعة تُصيبهم مرَّةً بعد مرَّةٍ، لا تتوقَّف ولا تَهْدأ، يُضاف إلى ذلك التَّناسُب الحاصل بين المُضارع ﴿يَزَالُ﴾ الدّالِّ على استمرار ما هو واقِع، وبين المُضارع ﴿تُصِيبُهُم﴾ الدّالِّ على الأمر نفْسه، فالمُضارع يعني عمَلًا تِلْوَ عَمَلٍ.

دلالة الباء في قوله تعالى: ﴿بِمَا﴾:

الإيـمـاء بـأنَّ ما أصـابـهـم كـان بسبب ما قدَّمَتْه أيـديـهـم جـزاءً وِفاقًا

من معاني الباء السَّببيَّة[4]، فالباء في قوله تعالى: ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ أومأتْ إلى أنَّ إصابتهم المُميتة سببُها ما صَنعوا وما قدَّمتْه أيديهم، فالمعنى بسبب ما صنَعوا تُصيبهم القارعة، فالباء هُنا تَرْجمتْ عن الجزاء الوِفاق؛ فلا إصابة بدون اقتراف الكُفر، وفيه إشارة إلى العدالة الإلهيَّة تلك الَّتي لا تُعذِّب أحدًا

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 2/245.
(2) السّيوطيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 3/53.
(3) السّيوطيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 2/190.
(4) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 39.

حتّى تَبعثَ رُسلًا تِلْو رُسُلٍ لإخراج النّاس من غياهِب الكُفر إلى سَعة الإيمان.

دلالة استعمال ﴿بِمَا﴾ دون (الّذي):

كثرة ما صَنعوه لمُحارَبة الدَّعوة

(ما) في قوله تعالى ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ﴾: اسم موصول، و(ما) أعَمُّ وأشمل من أخيه (الَّذي)، حتّى قال النُّحاة إنّه يَقع على كُلِّ شيء، ويقعُ على ما ليس بشيء، لأنّه اسم مُبهم شديدُ الإبهام[1]، وهو هُنا دالٌّ على كثرة ما صَنعوه لمُحارَبة الدَّعوة، ومُكافحَة صاحبها اتِّهامًا وتشكيكًا ومُحاربَة، وكأنَّهم ما وُجِدوا إلّا ليَصنعوا ما في وُسْعهم لوَأْد الدَّعوة الإسلاميَّة وصاحبها، فعموميَّة (ما) دالَّة على عموميَّة أفعالهم وصُنعهم؛ لذا كان أوْلى من (الّذي) الَّذي لا يَحمل هذا الإبهام.

نُكتة التَّعبير بالفعل ﴿صَنَعُواْ﴾ دون غيره:

بيان مُحارَبتهم الدَّعوة نتيجة تخطيط وترتيب

في قوله تعالى: ﴿بِمَا صَنَعُواْ﴾ آثَرَ القرآن الكريم التَّعبيرَ بالصُّنع دون العمل؛ لبيان القصْديَّة في مُحاربة الدَّعوة، فليست المُحارَبة عَفْوَ الخاطِر، وإنَّما هي تخطيط وترتيب وعمل دَؤوب لمواجهة الدَّعوة ووَأْدِها، فالصُّنع إجادة الفعل، فكلُّ صُنع فعلٌ، وليس كُلُّ فِعلٍ صُنعًا، ولا يُنسب إلى الحيوانات والجمادات كما يُنسَب إليها الفعل، وللإجادة يُقال للحاذِق المُجيد: صَنَعٌ، وللحاذِقة المُجيدة: صَناعٌ[2]؛ فكان التّعبير بـ (الصُّنع) أوْلى من التّعبير بـ (العمل) أو (الفعل)، ففي صيغة الصُّنع من الإيذان برُسوخهم في ذلك ما فيها[3].

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿صَنَعُواْ﴾:

ثبات صُنعهم وإيغالهم فيه حتّى صاروا من المُجيدين البارعينَ

إيثار الفعل الماضي ﴿صَنَعُواْ﴾ على المُضارع (يَصنعون) للإشارة إلى ثبات صُنعهم وإيغالهم فيه حتّى صاروا من المُجيدين البارعينَ؛

(1) السهيليّ، نتائج الفكر في النّحو، ص: 139.
(2) الرّاغب، المفردات: (صنع).
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/150.

أيْ: ممّا مُرِّنوا عليه من الشَّرِّ حتّى صار لهم طبْعًا[1]، وتوظيف الفعل الماضي ﴿صَنَعُواْ﴾ إشارة إلى العدالة الإلهيّة بإنزال البَلايا والمصائب، فكلُّ فعل له ردَّة فعل، فإذا صَنعوا عن إجادة فالقارِعة حاضِرة.

دلالة اختيار الفعليَّة ﴿صَنَعُواْ﴾ لا المَصْدَر:

الـدَّلالـة على تأكيد صَنيعهم فـي مـحـارَبـة الدَّعوة

آثَرَ النَّظْم الكريمُ التَّعبيرَ بالفعليَّة ﴿صَنَعُواْ﴾ دون المصْدريَّة؛ لوجود فرْق بينهما، فالفعل يدلُّ على حدث وزمن، أمّا المصْدَر فيدلُّ على حدث دون تعلُّقٍ بزمن[2]، وهذا الفارق هو السَّبب في توظيف الماضي دون المصْدر، فالفعل الماضي دلَّ دلالة قاطعة على أنَّهم صَنعوا ما صنَعوا في حقِّ الدَّعوة، فالفعل يَقينيُّ الثُّبوتِ، أمّا المصْدر فلا دلالة له على الزَّمن؛ لذا وُظِّفَ الفعل دون المصْدر، كما أنَّ الفاعل في ﴿صَنَعُواْ﴾ دالٌّ على قصْديَّة واجتهاد، وهذا غير واضح في المصْدر (صُنْعهم).

دلالة عدم ذِكْرِ مُتعلَّق ﴿صَنَعُواْ﴾:

إشـــارة إلـــى الـــعـــمـــوم والشُّمول

يدلُّ عدَمُ ذِكْرِ العائد في الاسم الموصول ﴿صَنَعُواْ﴾، على العموم في قوله تعالى: ﴿بِمَا صَنَعُواْ﴾، فلَم يَقُل القرآنُ: (صَنعوه) وحذَفَ المفعول[3]، للشُّمول وعدَم محدوديَّة الصُّنع، فكأنَّهم صَنعوا كلَّ شيء لإيقاف الدَّعوة وحصْرها أو إماتَتِها، ومِنْ ثَمَّ فالحذْف هُنا جاء حتّى تذهبَ النَّفْس كُلَّ مَذهب فيما صَنعوا، إضافة إلى الاختصار والتَّخفيف.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿قَارِعَةٌ﴾ دون مرادفاتها:

بيان أنَّ القارِعة شـديـدةٌ مـن شـدائـد الـدَّهـر مُفزِعة

إيثار لفظة ﴿قَارِعَةٌ﴾ هُنا؛ لأنَّها تَقرع القلوب بهَوْلها، ثُمَّ هي الشَّديدة من شدائد الدَّهر وهي الدّاهية[4]، فهي إذَن الَّتي تَقرع النَّاسَ بالأفزاع والأهوال، والسَّماءَ بالانشقاق والانفطار، والأرضَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/345.
(2) عبّاس حسن، النّحو الوافي: 2/205.
(3) ابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/496.
(4) ابن عطيّة المحرّر الوجيز: 5/516.

والجبالَ بالدَّكِّ والنَّسْفِ، والنُّجومَ بالطَّمْس والانكدارِ[1]؛ لذا كانت الأكثرَ مُناسَبة بسبب عُتوِّهم ونُفورهم ومُحارَبتِهم للدَّعوة، ولفظة (النّازلة) لا تُعطي هذا السِّرَّ؛ فالنّازلة تَصْدق على ما عظُم من الحوادث - وهو الأصل - وما سَهُلَ، فالدَّهر هو النّازلة تقول: دَهَرَهُم أمر؛ أيْ: نَزَلَ بهم مَكروه[2]، أمّا القارعة فإنَّها تختَصُّ بالعظائم والحوادث الشَّديدة.

بلاغة الاستعارة في التَّعبير بـ ﴿قَارِعَةٌ﴾:

بيان قضيَّة القارعة وكأنَّها عدوٌّ يَقصد إهلاكَهم

في لفظة ﴿قَارِعَةٌ﴾ استعارة مَكنيَّة، حيث شبَّه القارعة بالعَدوِّ المُتوجِّه إليهم فكأنَّها جُند من جنود الله سُلِّط على هؤلاء المُكذِّبين المُعاندين، وحذفَ المُشبَّه به وذكرَ صِفة من صفاته وهي الإصابة، فهي تُصيبُهم بأشَدِّ البلايا والمصائب، في أنفُسهم وأموالهم، وتُبيدُ خَضْراءَهم، وقد أسْنَدَ إليها الإصابة تارةً والحلول أخرى؛ فهي مع كونها استعارة بالكناية فهي تَخييل وترشيحٌ أيضًا[3].

دلالة التَّعبير بالمُؤنَّث في ﴿قَارِعَةٌ﴾ وتنكيرها:

قضد التَّهويل والمُبالَغة والتَّعظيم

التّأنيث هُنا "تأنيث تَهويلٍ ومُبالَغة، ولهذا جاءتْ أسماء يوم الحشْر كُلُّها مؤنَّثة، كالقيامة والقارعة والحاقّة والطَّامّة والصَّاخَّة إلى غيرها"[4]، والتَّنكير يتعادل مع التَّأنيث، فالتَّنكير على التَّعظيم والمُبالَغة في اللَّفظة بإضافة التّاء.

دلالة الإفراد في: ﴿قَارِعَةٌ﴾:

وحدة هدف كُلِّ قارِعة في دَحْر الكُفْرِ

آثَرَ النَّظْم القرآنيُّ إفراد لفظة ﴿قَارِعَةٌ﴾ دون جمْعها، على الرَّغم من القوارِع الَّتي أصابَت الكفّار، كالهزيمة في غزوة بدْر، وما رَماهم الله ﷻ به من خِزي في غزوة الأحزاب، ثُمَّ ما كان في فتْح

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/621.
(2) الخليل، العين: (دهر).
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/150.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/150.

مكّة[1]؛ للتَّهويل والتَّخويف والزَّجر، فإذا كانت قارعة واحدة تَفعل فيكم الخسْفَ والدَّمار والخَراب، فما بالُكم إذا اجتمعَت القوارِع الكُثُرُ؟ وفي هذا إيذانٌ بالقوَّة المُفرطة لقارعة واحدة، ويُمكن القول إنَّ الإفراد هُنا دالٌّ على وحدة هدَف كُلِّ قارعة من القوارع والهدف دَحْرُ الكُفر وهزيمة الكفّار.

دلالة إسناد الإصابة إلى القارعة:

التَّأكيد على كثرة جنود الحَقِّ

أُسندَت الإصابة لـ ﴿قَارِعَةٌ﴾ لبيان أنَّ لله ﷻ جُندًا يَنصر به المؤمنين، ويُعذِّب به الكافرين، وفي هذا طمأنة لقلب رسول الله ﷺ، وتثبيت لأفْئدة المؤمنين، وشفاءٌ لِما في صُدورهم، وفي إسناد الإصابة إليها دلالةٌ على المُطاوَعة والاستجابة الفوريَّة، كأنَّها بمُجرَّد أخْذها الأمرَ فعَلَت الأفاعيل في هؤلاء الكفّار، ثُمَّ إنَّ القارعة تُحَوِّلُ المكان من هدوء وسُكون إلى صَخَبٍ وضَوضاء فـ "القارعة هي الشَّيْء الَّذي يَطرق بعُنف على هادئٍ ساكِن"[2] ليحوِّل سُكونَه.

نُكتة العدول عن القتل إلى القارعة:

بيان أنَّ القارعة أعَمُّ من القتل

في قوله: ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ عدَلَ النَّظْم الكريمُ عن التَّعبير بالقتل إلى القارعة لوجود فرْق بينهما؛ فالقتل إزهاق للأرواح، ولا يحمل معنى الشُّمول الَّذي تُفيده القارعة، لأنَّ القارعة إزهاق للنُّفوس والأموال والأرض والذُّرِّيَّة، وكُلِّ ما يَمتلكونه، وإن "كانت القوارع – في أصلها – الَّتي تَقرع حِسَّهُم ليست إبادَة، ولكنَّها مُغالَبة ودفْع الفساد"[3] فدلَّ ذلك على أنَّ لفظة القتل قاصرة عن تحقيق الهدف، أمّا القارعة فهي الَّتي ترسِم الموقفَ الرَّهيب الَّذي يواجهه الكفّار، إضافة إلى ما سبَق فإنَّ عادة القرآن أن يَستخدم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/125.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 12/7348.
(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3951.

لفظة القارعة في الأحداث الكِبار والأحداث العاصفة، كإهلاك الأقوام، فهي شديدة الوَطْأة، وهذا ما ليس في كلِمة (القتْل) الَّتي توَظَّف في كبار الأحداث وصغارها، كما توظَّف على ما ليس بقتل وإنَّما هو الدُّعاء فقط[1]، لذا فالقتل جُزء مِنْ كُلٍّ؛ أيْ: جزء من ﴿قَارِعَةٌ﴾، فضَمَّت لفظة ﴿قَارِعَةٌ﴾ القتل في ثَناياها، فكان التَّعبير بـ ﴿قَارِعَةٌ﴾ أنسَب وأملأ للفائدة.

نُكتة تأخير ﴿قَارِعَةٌ﴾ عن قوله: ﴿بِمَا صَنَعُواْ﴾:

تقديم ما حقُّه التَّأخيرُ إنَّما يكون لنُكتة، والنُّكتة هُنا بيان أنَّهم هُم الَّذين أساؤوا التَّصَرُّف، وكفروا وسَتَروا ولَجّوا في طغيانهم، بل وبالَغوا في التَّضييق على أهل الإيمان، فكان ما فعلوه سببًا لنُزول القارعة عليهم؛ وهذا مُطلَق العدل، ومن ناحية أخرى فتقديم المجرور على الفاعل جاء على إرادة "التَّفسير إثْر الإبهام لزيادة التَّقرير والإحكام مع ما فيه من بيان أنَّ مَدار الإصابة من جِهتهم آثِر ذي أثيرٍ"[2].

تقرير أثَرِ القارعة عليهم بسبب ما اقْتَرَفوه من كُفْرٍ وعِناد

دلالة اختيار ﴿أَوْ﴾ دون الواو ونحْوها:

جاءت ﴿أَوْ﴾ في قوله: ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ لتنويع الأحوال، أو لأصناف المَضارِّ[3]، وهي هُنا مُناسِبة أشدَّ مناسَبة؛ ذلك لأنَّ المَضارَّ هُنا مُتعدِّدة من إصابة مباشرة، أو تهديد بعذاب عندما تحلُّ قريبًا من دارهم، وفي هذا إنذار شديد، وقد يكون وعدًا بالتَّخفيف إن هُم آمَنوا وتراجعوا عن غيِّهم، فقد تَلينُ بعض القُلوب وترجع عن غيِّها.

تنويع الأحوال، وبيان أصناف المَضارِّ

سرّ التّعبير بالفعل ﴿تَحُلُّ﴾ دون غيره:

للفعل (حلَّ)[4] فروع كثيرة ومسائل، وأصلها كلُّها: فتْحُ الشَّيءِ، لا

الدَّلالة على تَعدُّد معانيها وشُمولها للتَّنَزُّل ونحْوه

(1) كقوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ۝١٠﴾ [الذاريات: 10]، فهو دُعاء وليس قتْلًا حقيقيًّا.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/150.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/445.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حلل).

يَشذُّ عنه شيء، يؤكِّد هذا أنَّ المعنى المِحوريَّ للفعل (حَلَّ) يدور حَول فَكِّ ما كان مَشدودًا؛ أيْ: مربوطًا موثَقًا[1]، ويُناسِب الرَّسول إذا عاد الضَّمير عليه لأنَّه سيَحلُّ؛ أيْ: يَفْتح مكَّة وغيرَها من البلاد، ومن ثَمّ كان المناسِب الفعل (يحل) لا (يَنزل) ولا (يَحيق)، فكِلاهما لا يُؤدّيان هذا المعنى الخَفيَّ، ومن ناحية أخرى فإن (حلّ) يَترتَّب على (نَزل)، فهُما لَيْسا بمعنًى واحدٍ طِبْقًا، وهذا مفهوم من كَلام ابن فارس عندما يقول: "وحلّ: نَزلَ، وهو من هذا الباب؛ لأنَّ المسافر يَشُدُّ ويَعقِد، فإذا نزلَ حلَّ، يُقال: حَلَلتُ بالقوم"[2]، فصارت دار الكفّار محلًّا للقارعة؛ تهديدًا ووَعيدًا.

دلالة المضارِع ﴿تَحُلُّ﴾ دون الماضي:

استمرار الحُلول ودَوامه

عبَّر القرآن بالفعل المُضارع ﴿تَحُلُّ﴾ للإيذان باستمرار الحلول ودَوامه كأنَّه مُشاهَد؛ وذلك لعُتوِّهم وكُفرهم، وهذا يعني أنَّ القارعة تُصيبُهم مرَّة بعد مرَّة، لا تتوقَّف ولا تَهدأ، فالمُضارع يَدُلُّ على عمل مُتَتابِع، وفي هذا زَجْر وتخويفٌ؛ لأنَّ العمل المُتواصِل تدمير وخسْف وتخويفٌ أو دَفْع ومُغالَبةٌ، وفيه إشارةٌ إلى حَثِّهم على الدُّخول في الإسلام حتّى تُرفع عنهم هذه القوارِع.

سِرُّ الإضمار في: ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾:

توسيع المعنى بإرادة القارعة أو الرَّسول مع جنوده

الإضمار دون الإظهار في قوله ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ في هذا السّياق يُحدِث اتِّساعًا في المعنى المفهوم، ذلك أنَّ الضَّمير هُنا يَصلح لأمريْن: الأوَّل أن يَعودَ على الرَّسول ﷺ، جاء في التّفسير: أوْ تَحُلُّ أنت يا مُحمَّد قَريبًا مِنْ دارِهِم، هذا تأويل فِرقة؛ منهم: الطّبريُّ وعَزاه إلى ابن عبّاس ومُجاهد وقَتادة[3]، الأمر الثّاني: يعود الضَّمير على

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حلل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حلل).
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/313.

القارعة، والمَعْنَيان مُرادان، فإذا أظهرنا الاسم ففي ذلك تحديد، وإذا أضمَرنا ففي ذلك توسيع، فكان الإضمار أنسَبَ للآية؛ لأنَّ العذاب سيكون عذابَين: قارعة الله، وقارعة الرّسول وجُنده.

دلالة التّعبير بقوله: ﴿قَرِيبًا﴾:

الإنـــــــذار والتَّـخـويـف إن لَـم يَـعـودوا إلى رُشدهم ويَنتهوا عن غَيِّهم

جاءت لفظة ﴿قَرِيبًا﴾ هُنا للتّهديد والتّخويف، فالقارعة لن تَحُلَّ في دارهم، لكنَّها ستكون قريبة، وعلى قُربها "يَفزعون منها ويَتطاير إليهم شَرَرُها"[1]، فهي لن تصيبهم مباشرةً، فاللَّفظة هُنا فيها معنى الإنظار مع الإنذار إن لَم يعودوا إلى رُشْدهم وسَليم عقولهم.

سرّ اختيار لفظ ﴿قَرِيبًا﴾ دون (ناحيَتهم):

اتّـسـاعٌ بحـذْف المَوصوف وإبقاء الصِّفة

عبَّر القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿قَرِيبًا﴾ لِما فيها من اتِّساع المعنى بحذْف المَوصوف وإبقاء الصِّفة، فالتَّقدير مكانًا قريبًا[2] أو زمانًا قريبًا، وهذا يَخلو منه الظَّرْف (ناحية)، فليس له إلّا معنى الجانب، ومن ثَمَّ حَسُنَ توظيف ﴿قَرِيبًا﴾، ثُمَّ إنَّ ﴿قَرِيبًا﴾ من أنواع المُشتقّات فهو صِفة مُشَبَّهة تَدلُّ على ثَبات القُرْب، فإنْ لَم يؤمن هؤلاء فالقارعة قريبةُ الحُلول بهم؛ فهُم بين حَدَثَيْن جليلَيْن، كلاهِمُا مُخيفٌ، فإمّا الإصابة والألَمُ؛ وإمّا الفزَع، فكأنَّ اللَّفظة تَحمل في طيّاتها معاني الوَعيد والتَّهديد، وهذا لا يكون في لفظة (ناحيتهم).

دلالة ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن دَارِهِمْ﴾:

تَـوافُـق معنى حرْف الجَرِّ (مِن) مـع (قـريـبًـا) دون حرْف الجرِّ (في) الـدّالِّ على الظَّرْفيَّة

توظيف ﴿مِّن﴾ هو الأنسَبُ للسّياق، ذلك أنَّ هذا الحَرْفَ دالٌّ على ابتداء الغاية في المكان[3]، وهذا يُناسِب القُربَ ﴿قَرِيبًا﴾، فالقُرب مَبدؤه (دارهم). أمّا (في) فتدلُّ على الظَّرْفيَّة، والظَّرفيَّة احتواءٌ وتَوغُّل وتَمَكُّن[4]، وكأنَّ القارعة توغَّلَت في دارهم فصارت دارُهم

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/150.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/123.
(3) الزّمخشريّ، المُفصّل في صنعة الإعراب، ص: 379.
(4) الزّمخشريّ، المُفصّل في صنعة الإعراب، ص: 381.

محلًّا للقارعة، وهذا يُخالف لفظة ﴿قَرِيبًا﴾ الدّالَّة على أنَّ القارعة بجانبهم لا داخل دارهم، فكان الأَوْلى توظيف ﴿مِّن﴾ الدّالَّةِ على الابتداء، لا (في) الدّالَّة على الظَّرْفيَّة.

دلالة التَّعبير بـ ﴿دَارِهِمْ﴾ عن (أرضهم):

بيان أنَّ البلدة صارت ملْكًا لِكُلِّ شخص يَسكن فيها، فهي داره

وظَّف القرآن الكريم لفظة ﴿دَارِهِمْ﴾ هُنا لعدَّة فوائد: الأولى: كَلِمة (دار) دالَّة على شِدَّة قُرْبِ العذاب، فهو ليس قريبًا من أرضهم؛ بل دارهم الَّتي يَسكُنون فيها ويستريحون، أمّا لفظة (أرضهم) فلا تَرْسُمُ صورة القُرب الشَّديد.

الثّانية: دلالة على (أرضهم) مكَّة، وكأنَّ البلدة صارت ملْكًا لكلِّ شخصٍ يسكن فيها، فهي داره، الَّتي تحميه وتَذود عنه.

الثّالثة: لفظة (دار) من الدَّوَران[1]، فاللَّفظة تشرح التَّحوُّل والدَّوران الَّذي سَيَلُفُّ الكون من ظُهور الرِّسالة وغياب الكُفر ودَحْره، فالحياة مُداوَلة.

نُكتة التَّعبير بـ ﴿دَارِهِمْ﴾ دون (ديارهم):

رَسْمُ صورة الضَّعف أمام ما سيحلُّ بهم من العذاب

أفادَ الإفراد في لفظة الدّار ثلاث فوائد؛ أوَّلها: قُدْرة القارعة على تدمير كُلِّ الدّيار، وكأنَّها دار واحدة، فليس في التَّدمير عُسْرٌ. ثانيها: أنَّ الإفراد هُنا يَرْسم صورة القِلَّة والضَّعف أمام ما سَيَحُلُّ بهم من ابتلاء ومصائب وخسْفٍ. ثالثها: أنَّ الإفراد هُنا كائن على أنَّ أئمَّة الكُفْرِ هُم مَن كانوا يُجادِلون الرَّسول ﷺ دون بقيَّةِ الكفّار، فكان الإفراد قائمًا بسبب قِلَّةِ المُتحدِّثين، وكأنَّ العذاب مُتّجه للكُبراء يَليهم العامَّة والدَّهماء لموافَقَتهم وسُكوتِهم.

ومن القراءة السّياقيّة للَّفظتَيْن نجِدُ ما يَلي:

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (دار).

أوَّلًا: قد يُراد بالواحد الجنس؛ فيدلُّ المفرَد على الجمْع، لأنَّ اللَّفظتَيْن جاءتا في سياق قصَّة واحدة[1].

ثانيًا: الإفراد دالٌّ على القِلَّة والهَشاشة؛ أمّا الجمْع فيدلُّ على الكثرة والتَّعدُّد في الغالِب.

ثالثًا: توحيد الدّار دليل على وحدة مَرجوَّة، وجمْعُها دليل التَّفرُّق والتَّشرْذُم[2].

رابعًا: الكلِمتان المُضافتان للضَّمير (هم) لا تأتيان إلّا في موضع العذاب في القرآن[3]، غير أنَّ ﴿دَارِهِمْ﴾ تزيد في الإجلال والخروج من الدّيار[4].

خامسًا: حيثُما كان الحديث مع كِبار القوم دون بقيَّة النّاس؛ فالكلِمة تأتي على الإفراد، وإذا كان الحوار مع المَلأ وعامَّة النّاس؛ فالكَلِمَة تأتي على الجمْع في بعض مواقف القرآن[5].

دلالة اختيار ﴿دَارِهِمْ﴾ دون مرادفاتها:

الـــدّار أعَـــمُّ وأشـــمـــل مـن البيوت والمساكن

إيثار لفظة (دار) لأنَّ فيها معنى التَّحوُّل وعدَم الاستقرار[6]، فكانت اللَّفظة مُناسِبة لقَسوة المَوْقِف وتحوُّلهم من عِزَّةٍ إلى ذِلَّةٍ ومَهانةٍ، إضافة إلى أنَّ كَلِمة (الدّار) أعَمُّ وأشمل من البيوت أو المساكن؛ فهي تؤدّي معنى القَبيلة[7]، كما قال الرَّسول ﷺ: «ألا أُخْبِرُكُم بِخَيْرِ دورِ الأنْصارِ؟»[8]، أرادَ بذلك القبيلة، ثُمّ إنَّ (دارَ

(1) الخضريّ، الإعجاز البيانيّ في صيغ الألفاظ، ص: 215.
(2) الخضريّ، الإعجاز البيانيّ في صيغ الألفاظ، ص: 215.
(3) وردت لفظة (دارهم) في القرآن أربع مرّات، وكلّها في مواطن العذاب، الأعراف، ص: 78، 91، الرّعد، ص: 31، العنكبوت، ص: 37.
(4) وردت كلمة (ديارهم) عشر مرّات، البقرة، ص: 85، البقرة، ص: 243، آل عمران، ص: 195، الأنفال، ص: 47، هود، ص: 67، هود، ص: 94، الحج، ص: 40، الأحزاب، ص: 27، الحشر: 2، 8.
(5) الخضريّ، الإعجاز البيانيّ في صيغ الألفاظ، ص: 215، وما بعدها.
(6) المعجم الوسيط: (دار).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دور).
(8) البخاريّ، صحيح البخاريّ، كتاب الزَّكاة، بَابُ خَرْصِ الثَّمَرِ، الحديث رقم: (1481).

يَدورُ) تدلُّ على كَثْرةِ حرَكاتِ النّاسِ فيها[1]، وهذا دليل حَيَويَّة وحركةٍ، فكانت القارعة كي تَقطَع كلّ هذا، وهذه المعاني لا تَتأتّى من كلمة البيت أو المسكن.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿مِّن دَارِهِمْ﴾ لا (منهُم):

بيان قوّة العذاب وشموله للسّاكن والمَساكن

الإشارة إلى لفظة ﴿دَارِهِمْ﴾ دون (منهُم) معناها أنَّ العذاب لن يَلحق الكفّار والكبَراء والرّاضينَ بكُفرهم، وإنَّما سَيَلحق الأهْلَ والذَّراري ممَّن يَمتنعون به، ويحتفظون به، فكان (من دارهم) شاملًا المكان وأهلَه، أمّا (منهُم) فلا تشمل الدّار؛ بل تَشمل ذواتَ الكفّار وحدهم.

دلالة الإضافة في ﴿دَارِهِمْ﴾:

التَّخصيص مع شِدَّة تَمَسُّكهم بدارِهم

أفادَت إضافة لفظة (دار) إلى الضَّمير (هم) العائدِ على الكفّار من أهل مكَّة التَّخصيص، فالدّار مُختَصَّة بهم، لا يُشركون أحدًا فيها، وهذا دليل على شِدَّة تَمسُّكهم بدارِهم؛ لأنَّ الدّار جزء منهم، فكانت الإضافة، ثُمَّ إنَّ تعريف الدّار بالألِف واللّام لا يُعطي المعنى المُلائم، فلا يَحسُن أن يُقال: أو تَحُلُّ قريبًا من الدّار، فكانت الإضافة هي الأمْلأ للفائدة؛ وفيها إشارة إلى الاعتراف بالملكيَّة الخاصَّة، حيث نسبَ الدّارَ لهم.

دلالة مخاطبة النّبيّ ﷺ: ﴿تَحُلُّ﴾:

الخِطاب تقويَة له ﷺ وتبشير بالفتْح والانتصار على الكفّار

ذَكَرَ بعض المُفسِّرين أنَّ الضَّمير في ﴿تَحُلُّ﴾ يجوز أن يعود على الرَّسول ﷺ فقالوا: أوْ تَحُلُّ أنت يا مُحمَّد قَريبًا مِنْ دارِهِمْ[2]، ودلالة تَوجيه الخِطاب إليه ﷺ العناية والاهتمامُ بأمرِه، كما أنَّ في الخِطاب تقويةً له وتبشيرًا بالفتح والانتصار على الكفّار.

وفي هذا إشارةٌ إعجازيَّة غيْبيَّة بإخبار الله تعالى لرسوله ﷺ بفتْح مكَّة.

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (دور).
(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/313.

دلالة التَّعبير بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ دون (إلى):

(حتّى) غاية لما قبلها، وفيها زيادة معنى القوّة والتّعظيم

جاء التَّعبير بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ﴾، لأنَّها غاية لِما قبْلها، وفيها زيادة معنى القوّة والتَّعظيم[1]، والمَوْقِفُ هُنا مَوقف قوّة وشِدَّة وتعظيم لهذا الوَعد، فكانت ﴿حَتَّىٰ﴾ هي الأنسَبَ لهذا الموقف وليس (إلى)؛ لأنَّها لا تحمل معنى التَّعظيم المُراد في هذا السّياق.

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿يَأۡتِيَ﴾ دون غيره:

سهولة الإتيان مع دلالة المَجيء على المَشَقَّة والشِّدَّة

آثَرَ النَّظْم الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل ﴿يَأۡتِيَ﴾ دون المَجيء؛ لوجود فَرْقٍ بينهما؛ "فالمجيء أعَمُّ من الإتيان، ولأنَّ الإتيان مجيء بسهولة، والإتيان قد يُقال باعتبار القصْد وإن لَم يَكُن منه الحصول، بخلاف المجيء فيُقال اعتبارًا بالحصول"[2]، فالقرآن الكريم، يستعملُ المجيء لِما فيه صعوبةٌ ومشقَّة، أو لِما هو صَعْبٌ وأشَقُّ ممّا تُستعمل له (أتى)، فهو يقول مثلًا: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [المؤمنون: 27]، وذلك لأنَّ المجيء فيه مشقَّة وشِدَّة، وقال: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ [ق: 19]. وقال ﴿لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا إِمۡرٗا ٧١﴾ [الكهف: 71][3] وهذا يُؤَكِّدُ سهولة الأمر في الفعل ﴿يَأۡتِيَ﴾، ومن الفروق بين هاتَيْن اللَّفظتيْن ما يتعلَّق بالجانب الإيقاعيِّ في نُطْقهما، وذلك أنَّ لفظة (أتى) أخَفُّ في النُّطْق من (جاء) بما فيها من ثِقل المَدِّ وإطالة الصَّوت به ولعلَّ هذا السَّبب هو السِرُّ في أنَّ لفظة (جاء) لَم تأتِ في القرآن إلّا بهذه الصّيغة، بخلاف لفظة (أتى)، فقد جاء الماضي منها، والمُضارع، والأمر، وفي القرآن: (﴿أَتَىٰٓ﴾ ﴿يَأۡتِيَ﴾ ﴿ٱئۡتِ﴾ ﴿يَأۡتُونَ﴾ ﴿فَأۡتِنَا﴾ ﴿فَأۡتُواْ﴾)، بخلاف اللَّفظة الأخرى الَّتي لَم تأتِ في القرآن إلّا بصيغة المُضي، ولا مِراء في أنَّ لفظة ﴿يَأۡتِيَ﴾ أخَفُّ من لفظة (يجيء).

(1) المراديّ، الجنى الدّاني في حروف المعاني، ص: 549.
(2) الرّاغب، المُفردات: (أتى).
(3) فاضل السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة في نصوص التّنزيل، ص: 97.

وعلى هذا فسِرُّ التَّعبير بالفعل ﴿يَأۡتِيَ﴾ هُنا هو سهولة حصوله للمسلمين، فإذا كان الوَعد المَأتيُّ مضافًا إلى الله فهو سَهْلُ التحقُّق يَسيرُهُ.

التّعبير بالمضارع ﴿يَأۡتِيَ﴾ دون الماضي:

الاستمرار واستحضار صورة الوَعد المأمول بفتْح مكّة

في قوله تعالى: ﴿يَأۡتِيَ﴾ إيثار للتَّعبير بالمُضارع، للدَّلالة على الاستمرارِ واستحضار صورة الوَعد المأمول بفتْح مكَّة، فالفعل المُضارع حَمَلَ في جوّفه معاني البُشرى والفتح، إضافة إلى دلالته على المُستقبَل هُنا بقرينة أنَّه لمّا يأتِ بعدُ، ومن ثَمَّ كان الأنسَبَ هُنا لمُعطيات الآية الكريمة.

بلاغة المَجاز في ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ﴾:

طمأنة قلوب المؤمنين المُنهَكين من محارَبة الكفّار لهم

جاء الوَعد في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ﴾ دالًّا على الفتح والنَّصر وظُهور رسول الله ﷺ ودينه على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة، وكأنَّ الوعد آتٍ برِضاه من دون إجبار، وفي تشبيه النّصر بالوَعد طمأنةٌ لقلوب المؤمنين المُنهكين من مُحاربة الكفّار لهم في أرزاقهم وأموالهم، ويمكن أن يكون الوعد على سبيل المَجاز المُرسَل على اعتبار ما سيكون تحقيقًا لا شكًّا وظنًّا.

دلالة التَّعبير بالمصدر ﴿وَعۡدُ﴾:

المُبالغة والقوَّة في المصدر أكثر منها في اسم المفعول

آثَرَ النَّظْم الكريمُ التَّعبيرَ بالمصْدر دون اسم المفعول؛ لوجود فرْقٍ بينهما؛ فالتَّعبير بالمصدر يُقصد به المُبالَغة، لذا جاء المصْدر هُنا (وعْد) دون اسم المفعول (موعود)؛ لأنَّ اسم المفعول يَقبل الشِّدَّة والضَّعف[1]، والمصْدر ليس له طريق إلّا المُبالَغة والقوَّة، فكان هو الأنسَبَ هُنا، لأنَّه وعْدٌ مَحتوم لا مَرَدَّ له، وفيه دلالة على أنَّ ما يُصيبهم حينئذٍ من العذاب أشَدُّ[2].

(1) ابن النّاظم، شرح الألفيّة، ص: 226، وفاضل السّامرّائيّ، معاني الأبنية في العربيّة، ص: 55.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/150.

دلالة التَّعبير عن إتيان العذاب بـ ﴿وَعۡدُ ٱللَّهِۚ﴾:

آثَر التَّعبير القرآنيُّ لفظة ﴿وَعۡدُ﴾ عن (العذاب) لنشْر التَّهكُّم والسُّخرية بهؤلاء؛ لأنَّ الوعْدَ بشارةٌ بخير، واستعمالُه هُنا على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة بِتَشبيه العذاب بالوعْد، انتظارًا منهم لخيرٍ قادِم، مع أنَّ مُستقبَلهم مُظلِمٌ.

التَّهكُّم والسُّخرية من هؤلاء الكفّار

دلالة إضافة الوعْد إلى الله: ﴿وَعۡدُ ٱللَّهِۚ﴾:

يَكتسب المُضاف قوَّته ممّا أُضيف إليه؛ لذا أُضيفت كلمة ﴿وَعۡدُ﴾ إلى ﴿ٱللَّهِۚ﴾ إشعارًا بالعظَمة والجلال، وتفخيمًا لهذا الوعْد الَّذي سيتحقَّقُ حتمًا؛ لأنَّ الله هو الَّذي قَدَّر ووَعَد بمَجيء الأمل بعد اليأس، كي لا يظلَّ اليأس مُسَيْطرًا على حركة المسلمين وعلى نُفوسِهم.

تفخيم وتعظيم هذا الوعْد

دلالة فصْل الجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾:

فُصِلت هذه الجُملة عمّا قبْلها كي تكون كالمَثَل الَّذي لا يحتاج إلى سابِق أو لاحِق، فتُنْطَق وحدَها، ففيها استقلاليَّة وكأنَّها حُكْمٌ عامٌّ بأنَّ الله لا يُخلِف وعْدَه، إذا حقَّقنا أسباب الوعد وصِرْنا أهلًا له.

بيان حُكْمٍ عامٍّ من أحكام الله مع خَلْقه

بلاغة التَّذييل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾:

جاء التَّذييل هُنا مُصَدَّرًا بـ ﴿إِنَّ﴾ تقويةً لقلب الرَّسول ﷺ، ولإزالة الحُزن عنه[1] بسبب ما لاقاه المُسلمون من عَنَت ومَشقَّة على أيْدي الكُفّار، ثُمَّ هي وعيدٌ للكُفّار بأنَّ النَّصر حَليف المُسلمين، لكن النَّصر يحتاج صبْر ساعةٍ.

تقوية قلب الرَّسول ﷺ وإزالة الحُزن عنه

دلالة التّأكيد في ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾:

التَّأكيد بـ (إنَّ) في نهاية الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ معناه حتميَّة تحقُّق الوعد تكرُّمًا منه سُبحانه، وإزالة الشَّكِّ في عدَم وقوعه، وقد يكون هذا تهديدًا لهم وتخويفًا من نزول ما وعَدهم الله

حتْميَّة تحقُّق الوعد تفضُّلًا منه سُبحانه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/42.

به على كُفرهم وعِنادهم وظُلْمهم[1]، ويَحتمل التَّأكيد بـ ﴿إِنَّ﴾ هنا مُراعاة لإنكار المُشركين[2] بأنَّ النَّصر سيكون في جانب المسلمين، وقد يكون الدّاعي إلى التَّوكيد الرَّغبة في تقويَة مضمون الكلام عند المُخاطَب وتقريرِهِ في نفْسه، وإن كان غير مُنْكِرٍ له.

دلالة التَّعبير بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾:

التَّخويف والزَّجْر للكافرين

آثَر النَّظْم الكريمُ التَّعبيرَ باسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ دون اسم (ربّ)؛ لأنَّه يحمل معنى التَّخويف والزَّجر لهؤلاء المُعاندين، بخِلاف لفظ (ربٍّ) ففيه إطماع للكفّار والظّالمين، لأنَّ الرَّبَّ من التَّربية والعطاء لا الزَّجر والتَّخويف، وهذا يُعطيهم إحساسًا بالتَّمادي في غيِّهم وضلالهم، فكان اسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ هو الأخْوَف والأزْجَرَ لهؤلاء.

دلالة إيثار الإظهار في: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾:

تربية المَهابة والخوف في النُّفوس كافَّة

التَّعبير بالاسم الظّاهر ﴿ٱللَّهَ﴾ دون الضَّمير مع أنَّ ذِكر الضَّمير أخَفُّ[3] له فائدتان: الأولى: تربية المَهابة والخوف في النُّفوس كافَّة، فإنَّه المُتَحكِّم في المَصائر، ومحقِّقُ الوعد للمؤمنين والوعيد للكافرين، كما أنَّ إظهار الاسم الجليل للإشارة إلى تعظيم المَوعود وإجلاله[4]، وهذا يعني أنَّ تكرير الاسم في الجملة الواحدة يكون في مَوْضع التَّفخيم[5]. الثّانية: إعادة الاسم دون الضَّمير صورة من صوَر الخروج عن مُقتضى الظّاهر، وهو نَوْع من الإطناب[6]؛ لأنَّه يأتي لزيادة التَّقرير، وتأكيد معنًى من المعاني باللَّفظ نفْسِه، ويقوم

(1) السَّعديّ، تفسير السَّعديّ: 1/418.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/145.
(3) الرّضيّ، شرح الرّضيّ على الكافية: 2/226.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 2/88.
(5) الرّضيّ، شرح الرّضيّ على الكافية: 2/226.
(6) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 2/482.

على إعادة الكلمة نفسها مرَّتيْن أو ثلاثًا، لِما لها من دلالة قويَّة على المعنى المُراد؛ فهي أحَقُّ بالتَّكرير[1].

نُكتة العُدول عن التَّعبير بتَحقُّق الوعد إلى عدَمِ خُلْف الميعاد:

الألوهيَّة مُنافيةٌ لإخلاف الوعد

لَم يَقُل القُرآن الكريم: إنَّ الله يُحَقِّقُ الميعاد، وإنَّما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ للإشعار بعلَّة الحُكْم، فإنَّ الألوهيَّة مُنافية للإخلاف[2]، كقولك: إنَّ الجوّاد لا يَخيب سائلُه، وكأنَّ النَّفي ردٌّ على مُنْكِرِ الميعاد.

دلالة التّعبير بـ ﴿ٱلۡمِيعَادَ﴾ دون الوعد:

المبالَغة والعموميّة والشّمول

للتَّعبير بالميعاد في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾، دون الوعد فوائد، أوَّلها: كراهة التَّكرار للفظة ﴿وَعۡدُ﴾ باصطفاء ﴿ٱلۡمِيعَادَ﴾، ثانيها: الميعاد أشمَل معنًى من الوعد، فالوعد جزء من الميعاد، وفي الميعاد معنى الوعيد، فضمَّتْ لفظة ﴿ٱلۡمِيعَادَ﴾ المعنَيَيْن: معنى الوعد بخير، والوعيد بعِقاب، ومن ثَمَّ يَنتفي قول مَن يقول: "إنَّ الله لا يُخلِف وعْدَه، ويجوز أن يُخلفَ وعيدهُ"[3]، ثالثها: الميعاد مصْدر ميميٌّ، والمصْدر الميميُّ يَحمل معه عُنصر الذّات (النَّفس)[4]، فعندما يقول الحقُّ: ﴿ٱلۡمِيعَادَ﴾ فإنَّه يَحمل ذاتًا مُنتَظرة للميعاد وهي نفوس المؤمنين والكافرين، رابعها: الميعاد مصْدر ميميٌّ بمعنى الحدَث لا بمعنى الزَّمان والمكان وهو اللّائق بمفعوليَّة ﴿يُخۡلِفُ﴾[5]، وكونه ليس بمعنى الزَّمان والمكان دليل على إبهامه وعدَم تحديد وقت له فلا تَعْلمه نفسٌ، قَرُب أو بعد، خامسها: المَصادر الميميَّةُ فيها مُبالَغة وأصلُها أسماء الزَّمان جُعِلَت كناية عن المصْدر[6]، وإن كانت أشدَّ مُبالَغةً من المصْدر.

(1) عبدالرحمن بو درع، نحو قراءة نصّيّة في بلاغة القرآن والحديث، ص: 113.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 2/88.
(3) عبدالله الغنيمان، شرح فتح المجيد: 141/28.
(4) فاضل السّامرّائيّ، معاني الأبنية في العربيّة، ص: 31.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 2/88.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/142.

سِرُّ إفراد لفظة ﴿ٱلۡمِيعَادَ﴾ لا جمْعها:

استـــواء كـلّ المَواعيد عند الله تعالى

إيثار إفراد لفظة ﴿ٱلۡمِيعَادَ﴾ لبيان استواء كُلِّ المواعيد عند الله تعالى في السُّهولة واليُسرِ، فليس شيء بصعب وإنَّما كُلُّه هيِّن على الله، وقد يكون ذلك لبيان شِدَّة العدل الَّذي سيكون في الميعاد بحيث يَأخذ كُلُّ فريق حقَّهُ ساعة الميعاد، ويَفترق الكافر والمؤمن ساعتَه.

سِرُّ تعريف ﴿ٱلۡمِيعَادَ﴾ لا تنكيره:

الثِّقة في تحقُّقه وعدالته

جاء تَعريف لفظة ﴿ٱلۡمِيعَادَ﴾ إشارة إلى الوَثاقة في تحقُّقه وحصول العدل فيه، حتّى يكون حاضرًا أمامكم غير غائب، فيَثِق المؤمن بعَطاء الله وعَدْله، ويَنالُ الكافر جزاء ما قدَّم من عملٍ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

القرآن والكتاب:

الكتاب يشمل كُـلَّ مـا هـو مكتوب من قرآن أو غيره

الكتاب يُطلَق على القرآن، وقد يُطلق على غيره من الكُتب السَّماويَّة كالتَّوراة؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام: 91]، وقد جاء الجمْع بينهما - أيْ بين القرآن والكتاب - والمقصود واحد، وهو القرآن، في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٖ ۝١﴾ [النّمل: 1] فالكتاب هو القرآن، فجمع له بين الصِّفتَيْن: بأنَّه قرآن، وأنَّه كتاب لأنَّه ما يظهر بالكتابة ويظهر بالقراءة[1]؛ إذَن فالكتاب يُطلَق على القرآن لأنَّه مكتوب، ويُطلَق على غيره من الكتب، فالقرآن والكتاب اسْمان عَلَمان للمُنَزَّل على مُحمَّد ﷺ، ووَصْفان لأنَّه يُقرأ ويُكتب، فحيث جاء بلفظ التَّعريف فهو العَلَم، وحيث جاء بلفظ النَّكرة فهو الوصْف[2].

اليأس والقنوط:

القـنـوط شِـدَّة اليأس واليأس أعَمُّ

في الفرْق بين اليأس والقنوط أقوال:

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/154.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/207.

الأوّل: القنوط شِدَّة اليأس، فهو يأس مُفرِط فيكون الفرْق بينهما مثل الفرق بين الدُّعاء والاستغاثة، فالاستغاثة دعاء خاصٌّ في حالة خاصَّة وهي داخِلة في الدُّعاء، فيكون القنوط يأسًا؛ ولكنَّه أعظَم اليأس وأشدُّه[1].

الثّاني: كِلاهما بمعنى قطْع الرَّجاء من رحمة الله، فإنَّ اليأس من مَنَعات القلب والقنوط ظهورُ آثارِه على ظاهر البدَن، جاء في الكشّاف: ﴿فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ۝٤٩﴾ [فُصّلت: 49]، بولِغَ فيه من طريقَيْن: من طريق بناء (فَعول)، ومن طريق التَّكرير، والقنوط أن يظهر عليه أثَرُ اليأس فيَتضاءل ويَنكسر؛ أيْ: يَقطَع الرَّجاء من فضل الله ورَوحه، وهذه صِفة الكافر بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨٧﴾ [يوسف: 87][2].

الثّالث: اليأس قد يأتي بمعنى العِلم، وهذا ما ليس في (القنوط) الَّتي تدلُّ على معنًى واحد فقط، ودليل معنى العِلم في اليأس قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[3].

الحلول والنُّزول:

الحُلول نتيجة للنُّزول، ولا يكون الحلول إلّا بنزول

يرى جمعٌ من أهل اللُّغة[4] أنَّ الحُلول هو النُّزول، فلا فرْق بينهما، لكن ابن فارس ذَكر أنَّ (حلَّ) الحاء واللّام له فروع كثيرة ومسائل، وأصلُها كُلّها: فتْحُ الشَّيء، لا يشِذُّ عنه شيء، يُقال: حلَلتُ العُقدة أحُلُّها حلًّا، وتقول العرَب: (يا عاقِدُ اذْكُرْ حلّاً). وحلَّ: نزَلَ، وهو من هذا الباب لأنَّ المُسافر يَشُدُّ ويَعقِد، فإذا نزَلَ حلَّ، يُقال: حلَلتُ بالقوم، وحَليلُ المرأة: بَعْلُها، وحَليلَةُ المَرءِ: زوجُه، وسُمِّيا بذلك لأنَّ كُلَّ واحد منهما يَحلُّ عند صاحبه[5].

(1) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 245.
(2) محيي الدين الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/9.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/9.
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (حلّ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حلّ).

فنخْلصُ من هذا النَّقل إلى أنَّ الفعلَيْن بينهما اشتراكٌ في أصل المعنى؛ لكن يختَصُّ الفعل (حلّ) بمعنًى زائد؛ وهو الفتح الَّذي ليس في (نزل)، وعبارة ابن فارس: وحلَّ: نزل، وهو من هذا الباب؛ لأنّ المُسافر يشُدُّ ويَعقِد، فإذا نزل حَلَّ، فكأنّ الحلول نتيجةٌ للنُّزول، ولا يكون الحلول إلّا بنزول.

جميع وكلّ:

لفظة (كُلٌّ) أقوى صيَغ العموم، وتختَصُّ لفظة (جميع) بالدَّلالة على اتِّحاد الزَّمن

اللَّفظان من ألفاظ العموم[1]، وإن كانت (كُلّ) "أقوى صيَغه، فمادَّتها تقتضي الاستغراق والشُّمولَ، كالإكليل لإحاطَتِه بالرَّأس، والكلالة لإحاطتها بالوالِد والوَلد"[2]؛ فلهذا كانت أصرَحَ صيَغ العموم لشمولها العاقِل وغيرَه، المُذكَّر والمؤنَّث، المفرَد والمثنّى والجمْع، وهُما "اسمان يَدخلانِ على ما يعقل وعَلى ما لا يعقل"[3].

وصيغة (كُلّ) تكثر إضافتُها[4]، فإنْ أُضيفت إلى نكِرة مُفرَدة فهي لشمول جزئيّاتها كقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: 185]، وإن أُضيفت إلى مَعرفة فالغالِب أن يكونَ جمْعًا أو ما في مَعْناه، وتكون لاستغراق جزئيّاته أيضًا، كقوله ﷺ: «كُلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤول عن رعيَّته»[5]، وإن أضيفَت إلى مفرَد مَعرفة كانت لاستغراق أجزائه، كقولك كلُّ الطَّريق آمِنَة، وقد يُحذف المُضاف إليه فتُنوَّن كما في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النّور: 41]، ولفظ (كلّ) يُفيد العموم ابتداءً وتَبعًا، فمثال الأوَّل ما سبَق، ومثال الثّاني قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠﴾ [الحجر: 30]، وأمّا لفظ (جميع) فلا يُضاف إلّا إلى مَعرفة، كقولك: (جميع علماء البلد

(1) الرّازيّ، المحصول: 2/394.
(2) أبو المنذر المنياويّ، الشّرح الكبير لمختصر الأصول من علم الأصول، ص: 235.
(3) أبو الحسين البصريّ، المُعتَمَد في أصول الفقه، ص: 191.
(4) عياض بن نامي السّلميّ، أصول الفقه الّذي لا يَسَعُ الفقيه جهله، ص: 299.
(5) رواه البخاريّ من حديث ابن عمر ﷺ، كتاب الجمعة، بَابُ الجُمُعَةِ فِي القُرَى وَالمُدُنِ، الحديث رقم: (893).

حاضرون) ويكثر فيها حذْف المُضاف إليه فتُنَوَّن كقوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [يس: 53]، وإذا جاءت مؤكِّدةً فإنَّها تُنصَب على الحال غالبًا، وذلك كقوله تعالى: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ [هود: 55].

ومن الفروق بين اللَّفظتَيْن أن لفظة (جميع) تدلُّ على اتِّحاد الزَّمن[1]، فإذا قيل: قوم جميعٌ؛ أيْ: مُجتمعون[2]، وهذا لا يُفيده (كلّهم)، فـ(الكُلُّ يُفيد الإحاطة دون الاجتماع)[3].

الوعد والميعاد:

تُجمَل الفروق بين الوعد والميعاد في ما يَلي:

الوعد تَرْجيَةٌ ويكون في الخير والشَّرِّ والميعاد أشمَلُ منه

أوَّلًا: الوَعْد: أصله إنْشاءُ تَرْجية بالخير لإظْهار أمر في النَّفس يوجِب سرور المُخاطَب[4]، وقد يكون في الشَّرِّ، يُقال: وعَدْتُهُ بنفْع وضُرٍّ، وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ [إبراهيم: 22]، ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ [القصص: 61]، ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح: 20]، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [المائدة: 9] إلى غير ذلك. ومن الوَعْدِ بالشّرّ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحجّ: 47].

ثانيًا: الميعاد أشمل معنًى من الوعد، فالوعد جزء من الميعاد، وفي الميعاد معنى الوعيد، فضمَّت لفظة (الميعاد) المعنيَيْن: معنى الوعد بخير، والوعيد بعِقاب.

ثالثًا: الميعاد مصْدر ميميٌّ، والمصْدر الميميُّ يَحمل معه عُنصرَ الذّات (النَّفس)[5]، وليس (الوعد) هكذا.

(1) مفهوم من كلام ابن هشام عن (أجمعون)، شذور الذّهب، ص: 553.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (جمع).
(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 7/391.
(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 939.
(5) فاضل السّامرّائيّ، معاني الأبنية في العربيّة، ص: 31.

رابعًا: الميعاد مصدر ميميٌّ بمعنى الحدث لا بمعنى الزَّمان والمكان، وكونه ليس بمعنى الزَّمان والمكان دليل على إبهامه وعدَم تحديد وقت له فلا تعْلَمه نفْس، قرُب أو بعُدَ.
خامسًا: المَصادر الميميَّة فيها مُبالَغة ليست في المصْدر (الوعد)، وأصلها أسماء الزَّمان جُعلَت كناية عن المصْدر[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/142.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 24 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-21-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 24 : المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-21-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1718375 بتاريخ 2024/02/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»